إبداعات عالمية
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
366

• بالأبيض على الأسود

(رواية)

تـأ لـيـف: رُوبين دايفيد غونساليس غاليغو
ترجمة وتقديم: د. ناصر محمد الكندري
مـراجـعـة: د. وليد أحمد البصيري

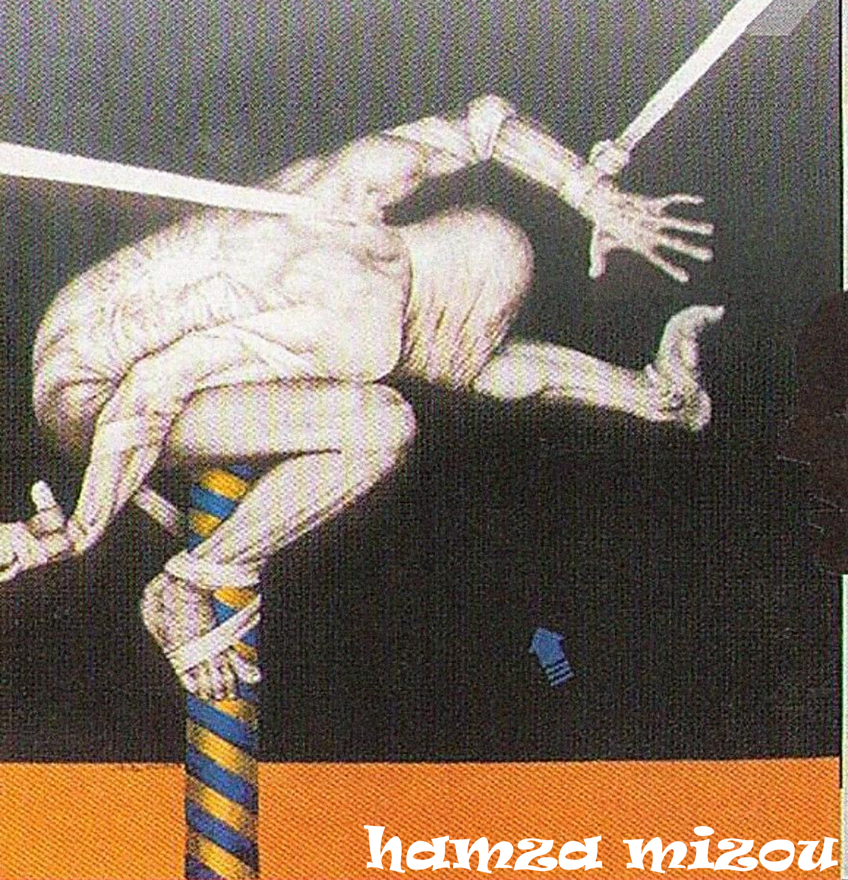

hamza mizou

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت
يونيو 2007

الفنان: سامي محمد

من كتالوج متحف الفن الحديث

العمود الأزرق والأصفر - ١٩٨٤

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

بالأبيض على الأسود

(رواية)

تـألـيـف: رُوبين داڤيد غونساليس غاليغو

ترجمة وتقديم: د. ناصر محمد الكندري

مـراجـعـة: د. وليد أحمد البصيري

العدد 366 يونيو 2007 | 1 |

• بالأبيض على الأسود

(رواية)

العنوان الأصلي:

БЕЛОЕ НА ЧЕРНОМ

Рубен Давид Гонсалес Гальего

ЛИМБУС ПРЕСС
Санкт-Петербург • Москва
2005

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2007م

إبداعات عالمية - العدد 366

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)

المقدمة

بين أيدينا رواية لكاتب غير عادي، نطل منها على الأدب الروسي المعاصر بكل مايتضمنه من واقعية وفن وجمال، أورد في عجالة نبذة عن حياته وعن روايته، وهما متداخلان فيما يعرف بأدب السيرة الذاتية.

ولد روبين دافيد غونساليس غاليغو في موسكو في ٢٠ سبتمبر من عام ١٩٦٨ من أم إسبانية (أورورا ابنة إيغناسيو غاليغو الأمين العام الأسبق للحزب الشيوعي الإسباني) وكانت تدرس في جامعة موسكو عندما التقت بأبيه، وهو طالب من فنزويلا.

أصيب غونساليس منذ ولادته بشلل الأطفال الدماغي، وعندما كان عمره عاما ونصف العام تدهورت حاله الصحية وأخبروا امه بأنه قد مات، ومنذ ذلك الوقت عاش حياته متنقلا بين مؤسسات مختلفة للمعاقين، وذلك عندما نقل من مستشفيات الكرملين إلى قرية كارتاشوفو بالقرب من مدينة فولخوف حيث أمضى أربع سنوات، ومنها إلى معهد كارل ماركس للأبحاث العلمية في لينينغراد ومن ثم إلى مدينة ترويجيفسك (مقاطعة بريانسك) ومنها إلى بلدة نيجني لوموف (مقاطعة بينزا) وأخيرا إلى مدينة نوفوجيركاسك.

تخرج في كليتي اللغة الإنجليزية والحقوق في مدينة نوفوجيركاسك، وتزوج مرتين حيث تعيش الزوجتان الآن هناك وتقومان بتربية ابنتيه ناديجدا ومايا.

وفي عام ٢٠٠٠ قرر مخرج إسباني تصوير فيلم عن روبين وكيفية البحث عن والدته، وقرروا اصطحابه مع فريق التصوير في رحلة كان مسارها نوفوجيركاسك - موسكو - مدريد - باريس - براغ... وفي عاصمة التشيك التقى بأمه عندما كان يبلغ من العمر اثنين وثلاثين عاما وقرر البقاء معها، وفي سبتمبر من عام ٢٠٠١ عادا إلى وطنهما التاريخي إسبانيا، وهما الآن يعيشان في مدريد.

رواية «بالأبيض على الأسود» سيرة ذاتية عن المؤلف روبين غاليغو، وعن طفولته التي قضاها في الاتحاد السوفييتي متنقلا في دور الأطفال للمعاقين ودور كبار السن العديدة. والقصص التي تتألف منها الرواية مستقاة من الحياة ومرتبة زمنيا، كل قصة في حد ذاتها تجربة كاملة.

عندما تقرأ الرواية تشعر بنوع من التنفيس بغض النظر عن العتمة التي تحيط بك وعن سواد العالم المحيط، والمؤلف قبل كل شيء يلفت الانتباه إلى اللحظات المضيئة في حياته، إنه يعطي درسا في كيفية الاستمتاع بالشيء الموجود لديك في هذه اللحظة، وعدم التذمر من الحياة أو من شيء لاتملكه أصلا.

الروايــة تدعــوك إلــى الحياة علــى الرغم من كثــرة صفحات الموت والـرعب فيها. وأبطال الرواية هم قدوة للأصحاء والمعافين وعلاج لحياتهم البائسة ولضعف إرادتهم.

وهذه الرواية تبين للإنسـان أن له نفسـا طيبة، وبغض النظر عن قسوة الحياة فإنها مهيأة لأن تهدي السعادة للآخرين وتسعد نفسها.

إن اسـتعمال كلمتي «الأبيض» و«الأسود» عنوانا للرواية يعبر عـن المضمون الفني للتضاد بـين هذين اللونين كما بينه: «أنا لا أحب اللون الأبيض - لون الضعف والقضاء المحكوم، لون سقف المستشـفى والشراشـف البيضـاء، أما الأسـود فهو لـون النضال والأمـل. لـون السـماء الليلية... لـون الأحلام والخرافـة... لون الحرية.

يقـول المؤلـف: «... لا أريـد أن أصف حقارة سـقوط الإنسـان لأضاعف بذلك سلسـلة لانهائية من شـحنات الشـر المترابطة. لا أريـد ذلـك. أنا أكتـب عن الخيـر، والنصر، والسـعادة والحب. أنـا أكتب عن القوة، القوة الروحيـة والبدنية، القوة الموجودة في داخل كل واحد منا، القوة التي تخترق كل العقبات وتنتصر. كل قصة من قصصي هي قصة عن النصر.

د. ناصر محمد الكندري

تصدير

فرقوا الأم عن ابنها، قالوا إنه مات. بعد ثلاثين عاما بُعث من الأموات فجأة.

تطور الأحداث يتطابق مع العرش، مع التعسف، مع «القناع الحديدي»، ومع آبار النسيان.

لكن هذه أماكننا وأماكنكم، أوقاتنا وأوقاتكم.

في أحد الأكياس الحجرية، حيث حُبس السجين صغير السن، الذي كان يُسمى معهد كارل ماركس العالي للأبحاث العلمية. وهو الآن بإصبعيه غير المعطلتين يُدّون أيضا سيرته الذاتية في «الكتاب الأسود» للشيوعية العالمية.

حروف سوداء على سقف أبيض، وفي الليل حروف بيضاء على سقف أسود، تستدعي إلى الحياة، طبعا، مؤلفات خاصة. أكثر سوادا من سيلين[1]، من بدايات سيلا[2] (الذي من الخارج كتب عن مسوخه ومجانينه الريفيين)، من كارفر[3]. أكثر سوادا حتى من شالاموف[4] وآخرين، العائدين والمعلنين أن الحقيقة بالنسبة إلى الكاتب، كلما كان الوضع أسوأ كان أحسن. هذا الـ «نن فيكشن» ينشأ خارج حدود الرعب «الاعتيادي»، ذلك الرعب الفظيع للناس، إذا صح التعبير، الاعتيادي.

(١) كاتب روسي.

(٢) كاتب إسباني.

(٣) كاتب أمريكي.

(٤) كاتب وشاعر روسي

زد على ذلك أنه لا توجد وجهة نظر، تجمدت مرة إلى الأبد في كوليما[٥]، ولا يوجد استهتار، ولا «التكديس» الخاص بالشيء المروع، (وعلى ما أذكر، تشاردوفسكي[٦] قدر هذا حق التقدير في «إيفان دينيسوفيج»[٧]. يوجد اهتمام يمس الالتزام بالحياة، توجد الرأفة، الحب، السذاجة - يوجد هلع وإحساس حيّ.

أتصل به هاتفيا في مدريد: «كيف الحال؟» والرد كما هو دائما، مثل كلمة السر، مثل رمز الإيمان: «حيّ !».

جريدة «موندو» كتبت: «خمسة وأربعون كيلو غراما خاصته - هي خمسة وأربعون كيلو غراما تفاؤلا» في جريدة «البراهين والحقائق» مقالة هذيانية عنه، طبعا، ولكن عنوانها دقيق: «ماجو[٨] في عربة المعوقين». هذا هو الواقع. وكاتبنا لا تنقصه الرجولة. وهذا ما يعبر عنه اسمه.

كما يوضح علم النفس التجريبي، فإن أي مجموعة من الناس، ابتداء من أسرة مأخوذة على حدة، تميل إلى بناء «صورة العدو» داخل نفسها. للأسف ابتدأ كل شيء من هذا. في أسرة متعددة الأطفال لأحد قياديي الحزب الشيوعي الإسباني، الذي كانت رئاسته تناضل ضد الفرانكونية[٩] من باريس، أصبحت الابنة الكبرى «النعجة السوداء». أوورورا تخرجت في الليسيه[١٠]

---

(٥) منطقة في سيبيريا.

(٦) شاعر روسي

(٧) رواية للكاتب الروسي سولچينيتسين (حاصل على جائزة نوبل).

(٨) شجاع أو قوي أو كامل الرجولة باللغة الإسبانية (macho).

(٩) نسبة إلى النظام الذي أقامه الديكتاتور فرانكو في إسبانيا بعد الحرب الأهلية من عام ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩ م.

(١٠) المدرسة الثانوية الفرنسية أو معهد أدبي.

في منتصف الستينيات حرة التفكير، حتى أن القائد بدلا من السوريون أرسلها إلى موسكو لـ «إعادة تربيتها»، نظرا إلى أن الإسبان هناك كانوا يناضلون أيضا ضد فرانكو برئاسة زميلته القديمة وصديقته - الرئيس الفخري للحزب دولوريس ايبارّوري (انظر رواية سيرغي يورينين «ابنة الأمين العام»، موسكو، ڤنيش سيجما، ١٩٩٩).

في تلال لينين[11] الإسبانية الباريسية تلتقي بطالب من فنزويلا، غيريليرو من كاراكاس، الهارب من الخونتا[12] إلى ما وراء المحيطات إلى بلاد المثل العليا.

أقيم حفل زفاف في الدور الثامن عشر في إحدى البنايات من الطراز الستاليني[13]. حمْل من دون ترتيبات مناسبة. اكتشاف مفاجئ، أن يكون توأما. القائد كان ينوي السفر إلى القرم للراحة ولكنه اضطر إلى عمل ترتيبات في مستشفى الكرملين، الذي كان سياسيا أمرا غير سهل على ضوء أنشطة الأخ الأكبر القاسية، والذي في هذه اللحظة بالذات كان يقرر الهجوم على «الوجه الإنساني» للاشتراكية التشيكوسلوفاكية بحذائه المشمع. من بعد هذا ازداد الوضع سوءا. بعد عشرة أيام من الولادة يموت أحد التوأمين، بالنسبة إلى الآخر يتم اكتشاف مرض مرعب - شلل الأطفال الدماغي.

---

(١١) منطقة سكنية في موسكو.

(١٢) مجلس سياسي، لجنة سياسية وبخاصة: عصبة مسيطرة على حكومة إثر انقلاب ثوري (في الدول الناطقة باللغة الإسبانية (JUNTA).

(١٣) نسبة إلى المباني السكنية التي بنيت في فترة حكم ستالين.

وفي الوقت نفسه تبدأ الإثارة السياسية. إذ إن مأساة خاصة تنسجم مع خلاف حاد بين الأحزاب. الحزب الشيوعي الإسباني يدين الحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتي بسبب براغ، والحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتي يدين الحزب الشيوعي الإسباني بسبب «الشيوعية الأوروبية». ابنة القائد، الموجودة مع ابنها في مؤسسة مغلقة لمدة عام واحد، تصبح رهينة الكرملين فعليا. مبدئيا يمكن حل المشكلة، وذلك بإعادة الابنة مع الحفيد إلى باريس. لكن باريس هذه ليست عيدا إطلاقا.

بالنسبة إلى القائد فإن باريس هي رأس جسر ومخفر أمامي في النضال ضد الفرانكونية. وإذا كانت باريس الرسمية تتغاضى عن هذا النشاط، فإن مدريد الرسمية تقوم بهجوم معاكس بهمة ونشاط. خوليان غريماو، أمين اللجنة السرية لمدينة مدريد التابعة للحزب الشيوعي الإسباني، «الهابط» من نافذة «وزارة الخوف» الواقعة على بويرتا ديل سول[١٤]، جرى اعتقاله وهو في طريقه إلى لقاء سري مع القائد، الذي كان دائما يذهب مشيا إلى جبال بيريني[١٥] في نوترو أودافا ويعود. وبالنسبة إلى فرانكو لا يوجد شيء أكثر رعبا من «الحُمر». ومن أجل شد الطوق على رقبة الأحمر، كان القائد العام مستعدا لعمل أي شيء حتى إبرام صفقة مع شيطان الكرملين. بعد وفاة الزعيم يخبر جيمس بوند خاصته الملقب بـ «البجعة» العالم عن الاتصالات ذات المنفعة

(١٤) منطقة في مدريد.
(١٥) سلسلة جبال في إسبانيا، فرنسا، وأندورا.

المتبادلة بين جهاز مخابرات فرانكو والكي جي بي[16]، الذي في مقابل معلومات عن قواعد «الخصم الرئيسي» في إسبانيا يقوم بالوفاء بالدين بتقديمه كشوفات بأسماء الشيوعيين الإسبان - السريين. حتى أن جنون الاضطهاد عند القائد بكل «زوايا السمت» كان له أكثر من مبرر.

والذي اتخذ القرار غير معروف. لكن الوضع الذي جرت مناقشته طبعا على أعلى المستويات، على صعيد حالات إنسانية أُخذت على حدة، جرت معالجته من دون رسميات وشكليات. وقد استدعيت أورورا، التي ذهبت إلى تلال لينين لتأدية الامتحانات، على عجل، لرؤية ابنها في العناية الفائقة. كان الولد يحتضر. وبعد عدة أيام اتصلوا بها في القسم الداخلي للطلبة: لقد «مات».

كما في حالة أول التوأمين - لا شهادة وفاة، ولا شهادة ميلاد. الموضوع مغلق - حتى لو ضربت جبهة رأسك ببوابة مستشفى الكرملين - هذا فيما يخص الأم مع الأب. أما بالنسبة إلى المطلعين على السر المرتب من الأعلى فلا يوجد أيضا شد أكثر من اللازم. إذن مات. مات - مع السلامة. حسبه يكون معافى...

استسلم الفنزويلي وسافر إلى الغرب، خارج إطار تطور الأحداث.

أورورا - على العكس - تفاعلت. أبقتها أسرتها على مسافة امنة في موسكو. بعد مضي سبعة أعوام استطاعت العودة إلى

---

(١٦) لجنة الأمن الحكومي في الاتحاد السوفييتي (المشهورة بالاستخبارات الروسية).

فرنسا، حيث أوصلت الكاتب الشاب المعارض وابنتهما، التي وُلدت بنجاح في مستشفى ولادة عادي في موسكو. باريس منحتهم اللجوء السياسي من الشيوعية العالمية.

كان القائد في إسبانيا. خوان كارلوس الثاني جعل الحزب الشيوعي قانونيا بعد وفاة فرانكو. أصبح القائد نائبا في الكورتيس - البرلمان الإسباني، بعد ذلك نائبا للرئيس، وبصفته هذه وضع إمضاءه هو والملك وقياديو أحزاب أخرى على أول دستور ديموقراطي لإسبانيا.

أصبح يسافر بكثرة حول العالم، كسفير مفوض لحزبه الشيوعي، ولم يغفل، طبعا، موسكو، حيث أبلغه الرفاق «حسب النظام المتبع في نقل المعلومات» أن ابنته وصهره الروسي يخدمان الإمبريالية الأمريكية في إذاعة «الحرية».

هل تذكر أحد في هذه اللحظة الحفيد؟

من المحتمل.

أصيبت الأم ذات العشرين عاما بالصدمة بعد الإصابة التي لحقت بها من جراء الولادة، وأورورا الآن تذكر هذه الصدمة كما تذكر فترة التوحد التي استمرت عاما، البكم التام والمعايشة العميقة جدا مع التوأم، الذي بقي على قيد الحياة، حتى أنها لم تطلق عليه في الخيال اسما بأي حال من الأحوال، ولا حتى «صغيري». كان جزءا لا يتجزأ منها، الذي كانت تخاف أن ينسلخ عنها بالصوت. وهو من دون اسم سُلب بعد إعلان وفاته. ولكن

ثمة أحدا فيما بعد أوصى بإعطاء الولد اسم أحد أولياء الحزب الشيوعي الإسباني، رُوبين. هكذا كان يُسمى ابن إيبارّوري، الذي قتل على مشارف ستالينغراد. وهكذا سمّي القائد ابنه الأول. وإذا كان الوضع هكذا، فإن هذا الاسم المعيّن من «الأعلى» كان بمنزلة صك الأمان للمريض بشلل الأطفال الدماغي وغير العادي في طريقه إلى الحاجة الحكومية.

هذا الصبيّ، الذي في دمائه الأندلس، مسقط رأس جده، اختلطت مع بلاد الباسك، مسقط رأس جدته، وهذا كله مع هنود وصينيي أمريكا اللاتينية «جينوس»، أرسل من مستشفيات الكرملين إلى قرية كارتاشيفو على مشارف فولخوف، حيث أمضى أربعة أعوام، بعد ذلك أرسل إلى المعهد العالي للأبحاث العلمية في لينينغراد السابق ذكره، ومن هناك إلى مقاطعة بريانسك، وإلى مدينة ترويجيفسك، ثم إلى مقاطعة پينزا، وإلى بلدة نيچزني لوموف لتصنيع المصابيح الكهربائية، وأخيرا، إلى مدينة العمال الذين أُعدموا رميا بالرصاص - نوفو جيركاسك. هنا تخرج في كليتي اللغة الإنجليزية والحقوق. لقد تزوج، وأنجب ابنة حسناء. جمع المال لشراء كمبيوتر. كان في أمريكا - من نيويورك إلى سان فرانسيسكو. عاد وطلّق وتزوج مرة أخرى ابنة حسناء. قرر مخرج إسباني ليتواني تصوير فيلم وثائقي عنه. في عام ٢٠٠٠ اصطحبته مجموعة التصوير في رحلة كان خطها: نوفوجيركاسك - موسكو - مدريد - باريس - براغ.

تسمى عاصمة التشيك - ليس من باب المصادفة - «أم المدن».
هنا وجد رُوبين أمه واختار أن يبقى معها. لقد انهارت، حقيقة، نظرية صورة الطفل، المقذوف إلى مصير مجهول. لكن وسائل الإعلام في كل من روسيا وإسبانيا أبدت اهتماما بالموضوع.

لقد تحقق «الحلم الأمريكي» أيضا عن قابلية الحركة. إن العربة المصنوعة في ميونيخ، يمكن التحكم فيها بإصبعين، وبسرعة لا يمكن اللحاق بها، (خمسة عشر كيلو مترا في الساعة).

عادت الأم وابنها إلى الوطن التاريخي، بعد مباركة أمير أستُوريا[١٧] والسلك الدبلوماسي المحلي. هبطت الطائرة في مطار مدريد في ٢٢ سبتمبر من عام ٢٠٠١. وقبل هذا بيوم أكمل رُوبين عامه الثالث والثلاثين.

في يوم ميلاده أُجري لقاء في البريد الإلكتروني.

- «الأذكياء»، كما يقال، مرضى شلل الأطفال الدماغي عادة يصبحون علماء، وفي بعض الأحيان عباقرة، مثل ستيفن هوكينغ. أمّا أنت، الذي تفوّق على الكمبيوتر، قررت أن تصبح كاتب نصوص، وليس برامج. لماذا؟

- العالم المشلول فعلا في كل العالم شيء عادى تماما.

ليس الكل يصبح مشهورا، ليس الكل يترأس أقساما علمية في الجامعات أو يصبح معروفا في كل العالم. يستطيع معوق

---

(١٧) مقاطعة في شمال إسبانيا.

طبيعي، عادى ذو قدرات متوسطة اختيار العلم بالذات بمنزلة حقل لتطبيق طموحاته الحياتية. الإنسان مقيدا بالإطار الطبيعي للجسم بغير إرادته يُصبح مراقبا. إذا كان النشاط الحركي للجسم محدودا للغاية، فإنه لا توجد عقبات للنشاط الذهني. إن كثيرا من الأصحاء أثناء التطور الحديث لتقنية الكمبيوتر يحكمون على أنفسهم طواعية بعدم الحركة أمام شاشة الكمبيوتر. أما المعوق، الذي ليست عدم الحركة بالنسبة إليه اختيارا طوعيا، فالعمل البحثي يلائمه وفقا لبارامترات(١٨) كثيرة جدا. على أي حال، يلائمه أي نشاط، الذي يقترح إمكان الاستقلال المالي والتكامل الاجتماعي. عندما يتحاور اختصاصيان في الرياضيات، فإن بارامتراتهما البدنية لها أهمية ثانوية.

ومن أجل أن يكون الشخص ضمن نُخبة المفكرين، فثمة شيئان ضروريان: التعليم حسب التخصص ومساندة المجتمع. المجتمع الروسي، في فترة شبابي، كان أيضا بكبرياء يُسمي نفسه سوفييتيا، لم يستطع منحي الإمكانية للحصول على التعليم. وعلاوة على ذلك، فإن الخطة المعتمدة من الحكومة لأمثالي، كانت تنحصر في عزلنا عن العالم الخارجي. إنهم لا يحتاجون إلى الأدمغة الفائضة في بلاد العباقرة بالجملة. الأغلبية من معارفي المعوقين، أناس ذوو عمل ذهني، رحلوا إلى الخارج.

---

(١٨) كمية متغيرة القيمة.

لـم أخطط لأن أكـون كاتـبا، حتى أنني لـم أحلم بهذا. كـل ما حققته في روسـيا، هو الإمكانية المحدودة للغاية للبقاء حيا. أنا ببسـاطة كنت أموت مـن الجوع. أول مذكراتـي ظهرت كرغبة في الحديث عن الذي رأيته، وبماذا مررت، حتى أموت وأنا طاهر الذمـة. بـدأت بوعـي أصبح كاتبـا، عندما غـادرت. عندمـا زالت الضرورة في النضال اليومي من أجل البقاء حيا في روسيا كنت متأكـدا تماما، أن مرضي غير قابل للشـفاء، تهيأت للموت. الآن صحتـي طبيعيـة، أنـا قادر على العمـل أكثر مـن أي وقت. أكتب كثيرا، أكتب أحيانا بسبب الكسل ببساطة.

- إن بطـل مذكراتكـم في أغلب الأحيان معـه كتاب، عادة من دون عنوان. ماذا قرأتم في الاتحاد السوفييتي، في روسيا؟

- قرأت كثيرا، قرأت كل شيء، أي شيء كان يقع في يدي. كنت أقرأ، مبتعدا عن الواقع.

معلمـو مـادة الأدب لـم يتميزوا أبـدا عن المعلمـين الآخرين. اجتهـدوا لتطبيـق الواقـع الأدبـي علـى الواقع الحقيقـي، لكن هذا كان غير ممكن في حالتي. الشـيء الذي يهمني فعلا، كانوا يرفضـون الحديث عنه معي، الأشـياء الأخرى كانـت لا تهمني. أبطـال المؤلفـات الأدبيـة كلهـم كشـخص واحـد إما أنهـم كانوا أصحاء، وإما أنه كان لديهم دعم اجتماعي. مشاكلهم كانت تبدو لي مضحكة. إن خبرة الحياة لشخص ذي إعاقة خطيرة، وعلاوة على ذلك من دون دعم الأسرة، لم تكن توصف في المؤلفات الأدبية.

لقد أصبح نيكولاي أستروفسكي، الذي حصل على دعاية شعبية كبيرة، معوقا بعد التكامل الاجتماعي في المجتمع.

كنت دائما أفضل الأدب المترجم. كان يأخذك بعيدا عن الواقع إلى درجة كبيرة، أكثر من الأدب السوفييتي. اكتشفت الأدب الروسي لنفسي، فقط عندما غادرت. قرأت لدوستويفسكي وكنت أفهم تقريبا كل شيء. أعجبني ويعجبني حتى الآن كُتّاب أمريكا اللاتينية.

- متى قررتم مباشرة الكمبيوتر؟

- عندما تعرفت على أمي، أدركت أنه من أجل أن أشرح للعالم، من أنا، يجب أن أكتب. أشياء كثيرة غريبة للغاية، تحفّظ في الكلام وأكاذيب كثيرة للغاية حول تاريخنا. إذا لم أصفه أنا سيصفه أحد آخر، بطريقة تكون لمصلحته. أكثرية الناس طبعا، سوف تكون مبتهجة أكثر إذا تصوروا مصائرنا كاتفاق أحوال سخيف. هذا ليس كذلك. لقد وجدت نفسي شاهدا مجبرا على النظام الاشتراكي في عزل الناقصين.

هناك سبب شخصي آخر للكتابة، فيما بعد - حياة طبيعية فيما مضي - جحيم. عليّ أن أتخلص من هذا الجحيم في نفسي.

- أين، لماذا، كيف كتبتم أول نص؟

- في روسيا. كنت أموت، قلبي فقد قوته بشكل نهائي. قطعوا التدفئة عن الدار، لم يكن الطعام الطبيعي يكفي. فجأة أخذت

حروف بيضاء تزحف ليلا على سقف الغرفة. أغمضت عينيّ، لم تختف الحروف. من الحروف كانت تتشكل كلمات. في الصباح التالي لم يبق لي إلا أن أكتبها.

- ما الذي يميزكم عن الناس، الذين كانوا مضطرين إلى ابتداع النصوص في السجون، في الإدارة الحكومية للمعسكرات[١٩] وفي ظروف أخرى، التي كان من الصعب الكتابة فيها؟

- لا شيء. وهذا ما يدعو إلى الغرابة. ظروف الحياة الصعبة بالذات كانت تقود الناس كثيرا جدا إلى الإبداع. القضية الرئيسية في السجن هي البقاء على قيد الحياة، وعدم التحطم.

الإبداع هو أحد الإمكانات للحفاظ على النفس كشخصية.

إذن يتضح أن مثل هذه الظروف تكون كتابية تماما. في حالتي تكون إمكانات الاختلاط مع العالم الخارجي محدودة بعض الشيء، لذلك تضطر إلى استعمال ما هو موجود.

- ميزاتكم ككاتب - بماذا تعوضكم عن غياب «النظر»؟ هل يوجد بالنسبة إليكم فرق بين الكُتّاب «المبصرين» وغيرهم؟

- لا أستطيع أن أحكم على ذلك. بالنسبة إليّ شخصيا فإن النقص في الانطباعات البصرية في الطفولة يكون بسبب ضعف النظر والإمكانية المحدودة للحركة، وقد عُوض بمعلومات مهمة من الكتب.

---

(١٩) المقصود مجموعة سجون.

- من أنت: إسباني يكتب باللغة الروسية؟ روسي يصبح إسبانيّا؟ كيف تتصور النشاط الكتابي في إسبانيا؟

- أنا شخص روسي. على الأرجح، ليس مائة في المائة، لكن لا أزال روسيّا. لقد تغيرت للغاية في العام الأخير. على كل حال، الآن قد بدأ تصوري يتكون عن الثقافة العالمية. إسبانيا تقبلني كمواطن لها، روسيا ترفضني. أنا أتغير، وأتغير بسرعة جدا.

لست متأكدا، إن النشاط الكتابي بالذات سيكون أساسيا. الأدب لا يُطعم. فهم اللغة، التعرف على ثقافة شعب آخر رضاء عظيم. إذن سأكتب، سأكتب باللغة الروسية أو الإسبانية. لا أرى فرقا.

- تسمّون بعض الناس «نصّيين»، ماذا يعني «الشخص النصّي»؟

- أشكال الاختلاط كثيرة. على سبيل المثال، الرقص، الموسيقى، الرسم. كقاعدة عامة، الإنسان يفضّل إحدى هذه الأشكال. إن أفضل طرق الاختلاط وأقربها إليّ هو الاختلاط عبر الكلمة والنص. الناس، الذين يعبرّون عن علاقتهم بالعالم بواسطة الحروف هم أناس «نصّيون».

- ومع ذلك فإن في العلوم الدقيقة بهجتها، ألا تتأسفون؟

- أتأسف أسفا عظيما، إنهم لم يدعوني إلى عالم العلوم الدقيقة. على الأرجح، كنت سأستطيع عمل الكثير، وأنجح في عمل الكثير. هذه العلوم تَدرُس العالم بطريقة العلوم

الإنسانية نفسها تماما. الفرق شكلي بين العالم والكاتب. العالم باستطاعته فقط أن يصبح كاتبا في أي عمر، ولا تستطيع أن تصبح عالما حقيقيا إلا في شبابك. أنا آسف، إن عالم العلم صعب المنال بالنسبة إليّ، وبالقدر نفسه آسف على أي فرصة أغفلتها لمعرفة العالم.

في اليوم نفسه، بوجود شراب بورغوند المدهش في مطعم فندق «أدريا» الواقع في ساحة ڤاتسيلاف، روي حادث، ربما سيكون ضمن كتاب دوريّ.

في عام ١٩٨٥ م. موسكو. الكرملين. في قاعة غيورغي - طابور الأمناء العاميين. ميخائيل سيرغيڤيج[٢٠] يتقبل التهاني. على الشاشة - الأمين العام للحزب الشيوعي لشعوب إسبانيا إيغناسيو غاليغو. إسباني أشيب الشعر مكتنز البدن، الذي باركه ستالين بنفسه، يصافح سيد الكرملين الجديد.

«أليس جدك ياروبين؟» - يلتفت إليه مشاهدو التلفزيون في إحدى دور الأطفال بعيدا عن موسكو. «لو كان جدي، لما شربت هنا معكم الشوربة» - يرد المعوق الشاب، الذي من المفترض أن يُنقل من يوم إلى آخر إلى دار كبار السن.

سيرغي يورينين

---

(٢٠) آخر رئيس للاتحاد السوفييتي ميخائيل سيرغيڤيج غورباتشوف.

البطل

أنا بطل. من السهل أن تكون بطلا. إذا لم يكن لديك يدان أو رجلان - أنت بطل أو ميت. إذا لم يكن لديك والدان - اعتمد على يديك ورجليك. وكن بطلا. إذا لم يكن لديك يدان ولا رجلان، وأنت بالإضافة إلى ذلك تحايلت وظهرت إلى الدنيا يتيما - هذا كل شيء. أنت محكوم عليك أن تكون بطلا حتى نهاية أيامك أو تموت. أنا بطل. ببساطة لا يوجد لي مخرج آخر.

* * *

أنا ولد صغير. وفي ليلة شتاء أحتاج إلى الذهاب إلى التواليت. لا معنى لأن أنادي الحاضنة.

حل واحد - الزحف إلى التواليت.

بداية يجب النزول من السرير. ثمة طريقة، أنا بنفسي ابتكرتها.

أقترب زحفا من حافة السرير وأنقلب على ظهري، ثم أرمي بجسمي على الأرض. ضربة. ألم.

أقترب زحفا من الباب إلى الممر، أدفع الباب برأسي وأزحف إلى الخارج من غرفة دافئة نسبيا إلى البرد والظلمة.

كل النوافذ في الممر مفتوحة ليلا. برد جدا. أنا - عارٍ.

يتعين الزحف بعيدا. عندما أزحف بالقرب من الغرفة ، حيث تنام الحاضنات، أحاول أن أناديهن طلبا للمساعدة، أطرق برأسي باب غرفتهن. لا أحد يجيب. أصرخ. لا أحد. ربما، أصرخ بصوت خافت.

وريثما أصل إلى التواليت، أتجمد نهائيا.

النوافذ مفتوحة في التواليت، وعلى شرفة النافذة ثلج.

أصـــل إلى «القصرية». أرتاح. يجب عليّ أن أرتاح قبل أن أزحف عائدا. ريثما أرتاح، تبدأ حافة البول بالتجمد.

أزحف عائدا. أحمل بأســـناني اللحاف من الســـرير، ألتحف به كيفما اتفق وأحاول النوم.

* * *

في الصباح التالي سيلبســـونني، ســـيوصلونني إلى المدرسة. في درس التاريخ ســـأتحدث بنشـــاط عن أهوال معســـكرات الاعتقال الفاشـــية. ســـأحصل على امتياز. دائما أحصل على درجة الامتياز في مادة التاريخ. درجاتي امتياز في كل المواد. أنا - بطل.

الأحلام

عندمـــا كنت صغيرا جدا، كنت أحلم بأمي، كنت أحلم حتى بلغت ســـتة أعوام. بعد ذلك فهمت، بالأحرى، شرحوا لي، أن أمي بشرتها سوداء، وقد هجرتني. لا يطيب لي أن أكتب مثل هذا، لكنهم شرحوا لي هذه المصطلحات بالذات.

أولئك، الذين شـــرحوا، كانوا كبارا وأقوياء، كانوا محقين في كل شـــيء، وفقا لذلك، كانوا محقين أيضا في مثل هذا الشيء التافه. طبعا، كان هناك كبار آخرون أيضا.

كانـــوا معلمين. المعلمون كانـــوا يحكـون لـــي عن البـلاد البـعيدة، عن الكتّاب العظماء، عن أن الحياة رائعة، وكل إنسان سوف يحصل على مكان على هذه الأرض إذا درس جيدا فقط وأطاع الكبار.

كانـــوا دائمـــا يكذبون. يكذبون في كل شـــيء. كانـــوا يحكون عن النجـــوم والقارات، لكن لم يكونوا يســـمحون لـــي بالخروج من بوابة دار الأطفال. كانوا يتحدثون عن المســـاواة بين كل الناس، لكنهم كانوا يأخذون فقط المرضى القادرين على المشي إلى السيرك والسينما.

فقط الحاضنات لم يكن يكذبن. كلمة روسية مدهشة «الحاضنة».

كلمة لطيفة. تتذكر بوشكين(*) في الحال: فلنشرب، يا حاضنة... نساء قرويات بســـيطات. لم يكن يكذبن أبدا. أحيانا كن يقدمن لنا الشـــكولاتة. أحيانا كن غاضبـــات، أحيانا كن طيبات، لكن كن دائما صريحـــات وصافيـــات النـية. كان بالإمكـان مـــرارا فـهم الحقيقة

(*) شاعر روسي.

مـــن حديثهـــن حيث كان من الاســـتحالة الحصول علـــى رد واضح مـــن المعلمين. كن يقلن لي، عندما كن يعطينني الشـــوكولاتة: «طفل مســـكين، ياليته يموت بأقصى سرعة، حتى لا يعذب نفسه ويعذبنا» أو عندمـــا كانوا يُخرجون الميـــت: «الحمد لله، أرتـــاح من العذاب، المســـكين». عندما أُصاب بالزكام، كنت أبقـــي في المبني المخصص للنوم مع إحدى هؤلاء الحاضنات وحدنا وما كان ينبغي عليّ الذهاب إلى المدرسة. هي سيدة طيبة كانت تحضر لي حلاوة ما أو فاكهة من الخشـــاف، وكانت تحكي لي عن الأطفال الذين قتلوا على الجبهة، وعن زوجها السكران كثيرا من الأشياء الشيقة.

كنت أسمع وأصدق كل شيء، كما يصدق الأطفال الحقيقة، وربما الأطفال فقط، لا يستطيع الكبار في أحيان كثيرة تصديق أي شيء. وهكذا الحاضنات كن يحكين لي عن «المومس ذات البشرة السوداء» ببساطة وبلا تكلّف، كما عن المطر أو الثلج.

في السادســـة من عمري توقفت عن الحلم في أمي. حلمت أني أصبحت «قادرا على المشي». الكل كانوا تقريبا «قادرين على المشي. حتى أولئك الذين يســـتطيعون بصعوبة المشي على العكازات. كانت علاقتهم بالقادرين على المشـــي أحســـن بكثيـــر، من علاقتهم بنا. كانوا بشرا.

بعد خروجهم من دار الأطفال كان من الممكن أن يصبحوا أناســـا يحتاج إليهم المجتمع - محاســـبين، إســـكافيين، خياطين. الكثيرون حصلوا على تعليم جيد، «شقوا طريقهم في الحياة».

بعد تخرجهم من دار الأطفال كانوا يصلون في ســـيارات غالية. فـــي ذلك الوقت جمعونا فـــي القاعة الكبيرة، كانـــوا يخبروننا عن

المنصب الذي يشغله تلميذ مدرستنا السابق. كان يتضح من هذه الأحاديث، أن هؤلاء الرجال والنساء البدينات كانوا دائما يطيعون الكبار، يدرسون جيدا وقد ظفروا بكل شيء بأدمغتهم ومثابرتهم. لكنهم كانوا من القادرين على المشي! اللعنة! هل كان يجب عليّ أن أستمع إلى ثرثرتهم المتبجحة؟ إذن فأنا أعرفه، ما الذي ينبغي عمله بعد أن تصبح من القادرين على المشي؟ لا أحد كان يتحدث، عن كيف تصبح منهم.

عندما بلغت الثامنة فهمت فكرة واحدة بسيطة جدا: أنا وحيد ولا أحد يحتاج إليّ.

الكبار والأطفال يفكرون في أنفسهم فقط.. كنت أعرف طبعا، أن الأمهات، والآباء، والأجداد مع الجدات موجودون في مكان ما على كوكب آخر.

لكن هذا كان إلى درجة ما بعيدا وغير مقنع، حتى أنني نسبت كل هذا الهراء إلى مجال النجوم والقارات.

في التاسعة من عمري أدركت أنني لن أستطيع المشي أبدا. وكان هذا محزنا جدا، ثم صرف النظر عن السفر إلى البلاد البعيدة، عن النجوم والمباهج الأخرى.

يبقي الموت طويلا وعديم الفائدة.

في العاشرة قرأت عن الكاميكادزة(*). هؤلاء الفتيان الشجعان كانوا يحملون الموت للعدو. وبرحلة طيران واحدة من دون توقف سددوا للوطن كل الديون عن الأرز المأكول، والحفاظات المتسخة، والكراسات المدرسية، وابتسامات البنات، والشمس والنجوم، والحق

(*) الطيار الفدائي الياباني.

في رؤية الأم كل يوم. كان هذا يناسبني. أدركت أن لا أحد سيركبني الطائرة. كنت أحلم في الطوربيد. الطوربيد الموجه، المحشــو بمواد متفجــرة. كنت أحلــم أنني رويدا رويدا ســأقترب خفية من حاملة طائرات العدو، وسوف أضغط على الزر الأحمر.

مرت أعوام كثيرة منذ ذلك الوقت. أنا الآن رجل راشد وأفهم كل شيء. لعل هذا شــيء جيد، ومن المحتمل أنه ليس جيدا للغاية. كل الفاهمين كثيرا ما يكونون مملين وبدائيين.

لا أملــك الحق في أن أتمنــى الموت، حيث إن الكثير يتوقف علي في مصير أسرتي. زوجتي وأطفالي يحبونني، وأنا أيضا أحبهم جدا جدا. لكن أحيانا، عندما أكون مستلقيا في الليل ولا أستطيع النوم، أحلم في الطوربيد مع الزر الأحمر. هذا الحلم الطفولي الساذج لم يدعني وشأني، وربما لن يدعني وشأني أبدا.

العيد

أول ذكــرى. أنا وحدى صغير، أرقد في المانيج(*). أصرخ. لا أحد يقترب. أصرخ طويلا. المانيج سرير أطفال عادي بجوانب متشابكة عاليــة. أرقد على ظهري، أحس بالألم والبلل. جوانب المانيج مغطاة بغطـــاء أبيض متصل. لا أحد. أمام عيني ســقف أبيض، إذا أدرت رأسي، فبالإمكان النظر لفترة طويلة إلى الغطاء الأبيض. أنا أصرخ وأصرخ. الكبار يأتون حســب الجدول، عندما يحضرون يصرخون علــيّ، يطعمونني، يغيرون لي الحـفاظات. أنـــا أحـب الكبار، وهـم لا يحبونني.

فليصرخوا، وليضعوني على متكأ غير مريح. بالنســبة إليّ على حد ســواء. أريد أن يأتي أحد ما. حينئذ في الإمكان رؤية مانيجات أخرى، طاولة، كراسي ونافذة. هذا كل شيء.

بعد ذلك سيضعونني في المانيج. عندما يضعونني، سأصرخ من جديد. سيصرخون عليّ. لا يريدون أن يحملوني، أنا لا أريد أن أكون في المانيج. كم أتذكر نفســي، كنت دائما أخـــاف، عندما يتركونني وحدي. كانوا يتركونني وحدي بانتظام.

أول وألطــف رائحة هـــي خلطة العطر. أحيانا نســـاء في أردية بيضـــاء كن يأتين يحملنني. كن يحملنني فـــي حرص ليس كالمعتاد. كن يســـمين هذا «عيدا». كانت تفوح منهن رائحة طيبة. نقلنني إلى مكان ما، أتين بي إلى غرفة كبيرة فيها طاولة وكراسي. كنت جالسا

(*) حظيرة نقالة (يلعب ضمنها الطفل).

في حضن إحداهن. النساء كن يناولنني من يد إلى يد. كن يعطينني شـيئا ما لذيذا. لكن الشـيء الألطف كان أنني كنت أستطيع رؤية كل شيء. كل شـيء من حولي. وجوه الناس، الأطباق الجميلة على الطـاولات، القناني والأقداح. الكل كان يشـرب، يأكل ويتحدث. المرأة التي كنت جالسـا في حضنها، كانت تمسكني بيد واحدة في حرص للغاية، وباليد الأخرى كانت ترشف برشاقة حصة تالية من الشـراب، ومن ثم كانت تتذوق المقبلات المتنوعة، كانت تقطع جزءا صغيرا من كل نوع وتضعه في فمي. لا أحد كان يصرخ على أحد. أحس بالدفء والراحة.

* * *

في دار الأطفال سـكرة، سكرة عادية، كل شـيء بأدب. الفتيان يتناولون الشـراب، ويتذوقـون المقبلات. هـؤلاء تلاميذ الصفوف العليا. دخلوا الغرفة بسرعة بعد الدروس. جلسوا في زاوية الغرفة، أبقوا شـخصا للمراقبة. فتحوا المعلبات، تناولوا شرابا بالتناوب من كوب معدني واحد، تلمجوا على عجل.

لمحوني فجأة، كنت مستلقيا تحت السرير في الزاوية المقابلة من الغرفة. جسمي تحت السرير، رأسي والكتفان خارج السرير، أمامي كتاب. كنت أقرأه بصورة مريحة للغاية، حيث إنني كنت قد حشـرت رجليّ تحت السرير. لا أحد سيقلقني.

- يا رُوبين، ازحف إلى هنا.

ضـع الكتاب جانبـا، ازحف. ازحـف ببطء، لكن الـكل ينتظر بصبر.

اقترب زحفا.

- هل ستتناول شرابا؟

سؤال بلاغي. الكل يدرك أنه لا يجوز لي بعد!

كانوا يشربون بعد سن الثانية عشرة فقط.

الكل يضحك. يضحك بلطف، الكل مزاجه طيب.

- حسنا، يا سيريوغا، اترك الولد وشأنه. من الأفضل أن تعطيه شيئا ليأكله.

سيريوغا، شاب من دون رجلين، يحضّر لي شطيرة من الخبز والمرتدلا.

ينظف لي فصوص الثوم.

الفتيان يتناولون الشراب ويتذوقون المقبلات. أنا آكل مع الكل. الوضع جيد. الكل يشعر بخير. عيد إذا لم يكن عيدا، لم يكن ليلاحظني أحد، خاصة أنه لم يكن ليتقاسم معي الأكل. أنا - لا أحد، أنا شخص عديم الخبرة وغير ماهر.

يشربون الشاي الثقيل. يغلون الشاي الثقيل في مرطبان كبير، يشربونه ببطء بالتناوب. لا يُسمح لي بشرب الشاي الثقيل ليس فقط لأنني لم أزل صغيرا، الكل يعرف أن قلبي مريض.

سيريوغا يأخذ الكوب وفيه بقايا الشراب، يقفز بسرعة إلى عربة النقل الخاصة به، يغادر الغرفة. يعود بالكوب ممتلئ بالماء تقريبا. وهو في يد واحدة، وعلى اليد الأخرى يندفع بعناية عن الأرض. ويضع الكوب على الأرض، يتناول من الخزانة الصغيرة مرطبان مربى وملعقة. يصب قليلا من المرطبان المشترك الذي يحتوي على الشاي الثقيل، في كوبي، يضيف المربى، يضع المربى بكرم.

- ها هو يقول - يا رُوبين. الآن عندك شاي مع المربى.

الفتيان يشـــربون الشاي الثقيل، أنا أشرب شـــايا حلوا. الوضع جيد. إذن اليوم عيد .

الطعام

لــم أكن أحب أن آكل. لــو كان ممكنا، لفضلــت الحبوب على القصص الخيالية: تأخذ مثل هذه الحبة فتشــبع اليوم. كنت آكل بشكل ســيئ، كانوا يقنعونني ويطعمونني بالملعقة - كل شيء كان بلا فائدة.

حالفنــي الحظ: عندما كنت صغيرا جدا، فإنني كنت أعيش في دار أطفال غير كبيرة في منطقة قروية. كانوا يطعموننا جيدا والأكل كان شهيا، الحاضنات كن طيبات، كن يراقبن حتى يأكل كل الأطفال، كن يعتنين بنا.

بعد ذلك كانت دار أطفال أخرى، حاضنات أخريات، طعام آخر. عصيدة من الشــعير الفاخر، كعكات فيها ديدان، بيض غير طازج. كان هناك كل شيء. لكن ليس عن هذا سأكتب.

يخطر على بالي، أن أحســن ذكرياتــي المرتبطة بالطعام. أفضل لحظات طفولتي أيضا مرتبطة بالطعام، وبالأحرى مع أولئك الناس الذين شاركوني الطعام، الذين أهدوني الطعام كعلامة على وضعهم. هذا شيء غريب بالنسبة إليّ.

* * *

لا أتذكر، أين كان هذا، أتذكر الأطفال في أردية بيضاء. كنا أطفالا كثيرين، وكلنا كنا صغارا جدا.

حملــوا الأناناس إلى الغرفة. فــي ذلك الوقت بدا لي كبيرا جدا وجميــلا. لم يقطعوه في الحال، ســمحوا لنا بأن نســتمتع بالنظر

إليه. يبدو أن الكبار أنفسهم لم يتجاسروا أيضا على هدم مثل هذا الجمال. الأناناس نادر في روسيا.

الأناناس خيّب أمل الكل وبالأحرى، الكل تقريبا. تذوق الأطفال طعمه اللاذع والمتميز ورفضوا أكل هذه الأجزاء اليانعة للغاية. أكلت أنا وحدي.

أتذكر حديث الكبار.

- دعنا نعطه بعد.

- ما بالك، فجأة سيُصاب بسوء؟

- هل رأيت بطاقته؟ لعل أباه تربى على هذا الأناناس.

من المحتمل، أن عندهم الأناناس، كما أن عندنا البطاطس.

كانوا يعطونني أكثر وأكثر. ربما كان من المضحك للكبار، كيف يستطيع هذا الطفل الغريب أن يأكل هذه الفاكهة الغريبة. ولم يكونوا يستطيعون أن يرموا هذا الخير الكثير. أكلت الكثير من أجزاء الأناناس، ولم أشعر بسوء.

* * *

أحضروني إلى أول دار أطفال خاصة بي. لم يكن هناك أناس في أردية بيضاء، ولا أسرّة في بضعة صفوف. لكن كان هناك أطفال كثيرون وتلفزيون.

- لا يستطيع الجلوس بالمرة؟ دعنا نجلسه على الأريكة ونحطه بالوسائد.

أجلسوني على الأريكة، أحاطوني بالوسائد وأطعموني عصيدة السميد بالملعقة. من المفاجأة أكلت طبقا كاملا من العصيدة ونمت.

العصيدة كانت لذيذة جدا. أعجبتني دار الأطفال.

* * *

في المستشفي. ليلا. الكل نائم. تعرج الممرضة على العنبر، تفتح المصباح الذي فوق سريري. كانت مرتدية فستانا أنيقا، حذاؤها ذو كعب عال، شعرها ذو خصلات ومنسدل على كتفيها بحرية. تميل منخفضة في اتجاهي. عيناها كبيرتان جدا وسعيدتان. تفوح منها رائحة عطر ورائحة شيء منزلي، ليست رائحة المستشفى.

- أغلق عينيك، افتح فمك.

أنا أمتثل لذلك. تضع في فمي حلوى كبيرة من الشكولاتة. أنا أعرف كيف يجب أن آكل حلوى الشكولاتة. يجب أخذ حلوى الشوكولاتة في اليد وأقطعها قطعا صغيرة. بالإضافة إلى ذلك فإنني أرغب في التمعن في هذه الحلوى جيدا.

- اقضمها وكلها، هل فهمت؟

أومأت برأسي.

تقفل المصباح وتخرج مسرعة. أقضم الحلوى. فمي يمتلئ بشيء حلو وحار للغاية. أمضغ الشكولاتة، لسبب ما رأسي يدور. أشعر بتحسن. وسعادة.

* * *

ينقلونني إلى دار الأطفال التالية. أزحف في الممر، الحاضنة تسير باتجاهي. ظلمة في الممر، وهي لا تلاحظني في الحال. عندما تقترب مني تماما، فجأة تطلق صرخة وتبتعد عني. بعد ذلك تقترب مني، تنحني، حتى تتمعن فيّ جيدا. بشرتي سمراء، حليق الشعر إلى درجة الصفر. من أول نظرة في الممر شبه المظلم في الإمكان رؤية

عينين فقط، عينين كبيرتين، متدليتين في الهواء على ارتفاع خمسة عشر سنتيمترا عن الأرض.

- ياله من هزيل. جلد وعظام كما لو كانا من بوخينڤالد(*).

أنا فعلا لست بدينا جدا. هناك، من حيث أحضروني، لم يكونوا يطعموننا جيدا، بالإضافة إلى أنني كنت آكل بشكل سيئ.

تخرج. تعود خلال دقيقتين وتضع على الأرض أمامي قطعة خبز مع شحم. أول مرة في حياتي أرى شحما، لهذا السبب آكل الشحم في البداية، بعد ذلك الخبز. فجأة أشعر بالدفء والراحة، وأخلد إلى النوم.

* * *

وفي عيد الفصح، كل الحاضنات مرتديات حلة العيد. الإحساس بالعيد في كل شيء. في أن الحاضنات بوجه خاص طيبات معنا، في شدة حرص المربين. لا أفهم شيئا. إذ إنه في وقت الأعياد يعرضون في التلفزيون الاستعراضات والمظاهرات. لا تكون هناك استعراضات فقط في عيد رأس السنة الجديدة. لكن في هذا العيد هناك شجرة رأس السنة والهدايا.

الحاضنة توزع على كل منا بعد الإفطار بيضة ملونة. داخل البيضة شيء أبيض، كما في البيضة العادية. أنا آكل بيضة عيد الفصح. لذيذة جدا، ألذ بكثير من البيض الذي يعطوننا إياه في دار الأطفال. بيض دار الأطفال هرئ، صلب، إنما هذه لينة ولذيذة جدا.

(*) معسكر اعتقال في ألمانيا الفاشية.

قد يبـدو هـذا غريـبا، ولكـــن أينـما كنـــت، في دار الأطــفال، في المستشــفي أو في دار كبار السن، ثمة إنسان طيب كان يعطيني في عيد الفصح بيضة ملونة. وهذا ببساطة شيء جيد.

* * *

في روسيا عادة يذكّر الموتى بطعام الضيافة. في اليوم الأربعين بعد الوفاة ينبغي على الأقارب تقاســم الطعام، زد على ذلك أن الضيافة لا تكون لمن اتفق، إنما تكون للناس الأكثر تعاسة. كلما كان الشخص الذي يجري إطعامه أكثر تعاســة، كان الميــت راضيا عنك أكثر، وكبر فضلك أمام الله. ومن أين يأخذون التعســاء، في أســعد بــلاد العالم؟ ها هم المساكين أتوا إلى بوابة دار الأطفال الخاصة بنا مع حقائبهم، وسلالهم وربطاتهم. حملوا الشكولاتة والبسكويت وأرغفة الخبز. حملوا الفطائر الصغيرة والفطائر المحـلاة، وكل ما كان في استطاعتهم. المربون الذين لا يكلون، كانوا يطردونهم، وغالبا بلا جدوى.

أمّا حاضناتنا اللاتي كن يستغللن وضعهن الوظيفي، فكن يحملن خلسة «الطعام الجنائزي» عبر بوابة دار الأطفال، بصرف النظر عن الحظر الصارم.

أكثر الحاضنـــات اللاتي حالفهن الحظ، كــن يعملن معنا، نحن المقعديــن (الذين يلزمون الفراش). كــن يطعمننا على حدة، المربون كانوا بعيدا. إحدى الحاضنات تحايلت خلســـة عبر كشــك المراقبة بحمل حلة فيها ســحلب فواكه. زد على ذلك أننا كنا الأكثر تعاسة. الشكولاتة، التي كنا نأكلها، كانت تُقدر أعلى بكثير منا .

أمـــا نحن، فمن ناحيـتنا، كنا نعرف أنه مقـابل «الطعام الجـنائزي» لا يجوز أن تقول «شكرا»، إنهم عندما يضيفونك، لا يجوز أن تبتسم.

كنت مستلقيا في الحديقة. كنا نسمي بضعا من أشجار التفاح، التي تنمو بالقرب من مبنى دار الأطفال، حديقة. اضطررت إلى الزحف طويلا حتى الحديقة، تعبت واستلقيت على ظهري لأرتاح.

كل القادرين على المشي كانوا بعيدين، من المحتمل أنهم كانوا يشاهدون فيلما في النادي، من المحتمل أن يكونوا ذهبوا بهم إلى مكان ما - لا أذكر. كنت مستلقيا ومنتظرا أن تفاحة ما ستسقط ليس بعيدا عني، لكنني وُفقت أكثر بكثير.

عجوز نحيفة تسلقت السور الذي كان بارتفاع مترين. لكن هذا لم يوقف العجوز. وثبت من على السور بسرعة، تلفتت من حولها واقتربت مني. عاينت يدي ورجلي بطريقة عملية، سألت بارتياب: «يتيم على الأرجح؟» أومأت برأسي. لم تكن تتوقع مثل هذا الحظ، رجلان ويدان ملتويتان، وبالإضافة إلى ذلك يتيم. وضعت على الأرض سلتها، طرحت المنشفة التي كانت تغطي المحتويات، أخرجت من هناك فطيرة محلاة وأعطتني إياها وأمرت: «كُل». بدأت بسرعة في أكل الفطائر المحلاة، كانت تستعجلني وتكرر: تذكر الخالة ڤارڤارا، تذكر الخالة ڤارڤارا. لكن كل شيء جيد ينتهي بسرعة.

لقد سارت الحاضنة من وراء زاوية المبنى.

- لماذا الغرباء موجودون في المنطقة؟ من سمح لكم بالدخول؟ ماذا تفعلون هنا؟

وقد وجهت كلامها إليّ :

- ماذا تفعل؟

ماذا كنت أفعل؟ كنت أمضغ الفطيرة الثالثة المحلاة. كنت أمضغ

بسرعة، لأنه كان في يدي نصف فطيرة محلاة، وكنت أريد أن أنتهي من أكلها كلها.

لقد أمسكت العجوز بسلتها وقفزت من على السور. أنا بسرعة اتممت أكل الفطيرة المحلاة. وقفت الحاضنة قليلا، ابتسمت من شيء ما وذهبت.

هذه كانت أول فطائر محلاة في حياتي.

* * *

مرة تالية ينقلونني من دار أطفال إلى دار أطفال أخرى. العيد يبدأ في محطة القطارات، يعطونني البوظة وعصير الليمون. البوظة كبيرة ومغطاة بالشكولاته. حالما يتحرك القطار من مكانه، تذهب الحاضنة والممرضة، كما تعبران عن ذلك، «للتنزه». «إذن، فلنذهب للتنزه».

تعودان برفقة اثنين من جورجيا(*). أحد الجورجيين كبير في السن، أشيب، والآخر أصغر سنا بقليل. الكل يتناولون بعض المشروبات، يشعرون بالسرور. يقطعون لي قطعة كبيرة من المرتديلا، يعطونني بيضا، وعصير ليمون. الجورجي الأشيب يقطع المرتديلا، يحضر الشطائر، ودائما يقول لي: «أنت كُل، كُل، الأطفال يجب أن يأكلوا جيدا». الطعام كثير جدا ولا أحد يحصيه.

تظلم الدنيا، في الإمكان النظر إلى النافذة بقدر ما يطيب لك أن تأكل المرتديلا. أريد أن أسافر وأسافر، أن أنظر إلى النافذة. أنا أفكر، فيما لو أُعطي كل الكبار على الأرض كثيرا من المشروبات والمرتديلا، فإنهم سيكونون طيبين وسيكون كل الأطفال سعداء.

(*) إحدى جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق.

أنا - في آخر وأحسن دار أطفال في العالم. أمامي في الإفطار: قليل من البطاطس المهروسة، نصف حبة طماطم، رغيف خبز بالزبدة وشاي. أنا أعرف بالضبط أن اليوم ليس عيدا، لكن لماذا إذن أعطوني البطاطس؟ أتذوق الشاي حلوا. الطماطم الطازجة طعام شهي إجمالا. آكل كل شيء وأدرك أنني وُفقت بشكل خيالي، أنا وصلت إلى الجنة.

* * *

أنا وكاتيا نعيش في مسكن في نصف السرداب، لأن والديها لا يريدان الاعتراف بزواجنا. هذه شقة معلمتي، إحدى أطيب النساء على الأرض. أسكنتنا في شقتها، أمّا هي فإنها ذهبت للعيش في المنزل الصيفي.

في الطريق من الجامعة تشتري كاتيا شوشبرك(*). تطهو كل العلبة دفعة واحدة. أنا أعرف، ما هو الشوشبرك. لقد كانوا يعطوننا منه في دار الأطفال أربع حبات للشخص الواحد.

- كم حبة سوف نأكل؟ - أسأل كاتيا.

تنظر إليّ بغرابة.

- كنتم تعدّون الشوشبرك؟

تضع لنا الشوشبرك. كاتيا تأكل طبق الشوشبرك، أنا لا أستطيع أن آكل أكثر من ست حبات. أنا أدرك أن في هذا العالم الغريب وغير الحكومي لا يعدّون الشوشبرك.

- لا تسكبي الماء المتبقي من الشوشبرك - أنا أنصح كاتيا بطريقة عملية - في الإمكان طبخ شوربة من هذا الماء.

(*) إحدى المأكولات الشعبية الروسية تتكون من عجينة محشوة بلحم ومطبوخة بالماء.

بعد بضعة أيام كنا في ضيافة والديْ كاتيا، التي تأكل الشوشبرك. أمها تأخذ من على الطاولة الطنجرة التي فيها مرقة الشوشبرك وتريد الخروج من المطبخ.

- يا أمي، لا تسكبي الماء، من الممكن طهو شوربة منه - كاتيا تقول ذلك تلقائيا.

في اليوم التالي، عندما تذهب كاتيا إلى الجامعة للدراسة، أمها تقترب بلا ضجة من سكننا وتضع تحت الباب دجاجة نية. فتحسنت العلاقات بعدها بينهما.

* * *

عندما تذهب كاتيا إلى العمل، أبقى على انفراد مع أكثر النساء فتنة. أنا وكاتيا نعيش في شقة واحدة مع جدتها.

تدخل إلى غرفتي، تجلس أمامي:

- إذن، متى ستموت؟

- ما بالكم - أنا أرد - متى سيحين الوقت، عندئذ سأموت. هأنتم أيضا لم تعودوا شبابا، أم أنكم تنوون العيش إلى الأبد؟

- ومن يحتاج إليك، من دون يدين، ومن دون رجلين؟ لا تستطيع أن تدق مسمارا.

- هل عندكم قلم الكوبيا (الرصاص)؟

- نعم.

- تمشوا في الشقة، وحينما تحتاجون إلى دق مسامير، ضعوا نقاطا. صدقوني، سيتم دق المسامير.

هكذا، في الأحاديث الودية الصريحة، نحن نمضي الوقت. الجدة

تحدثني عن شبابها، عن أقاربها. يبدو من أحاديثها أن كل أقاربها أوغاد وأنذال.

بعد مضي بعض الوقت تذهب إلى المطبخ، تدوي بالأواني. تحضر.

- رُوبين. أنا طهوت البورتش(*). هل ستأكل أم تخاف أن أسمّمك؟

- أعطوني البورتش، لا أخاف أن أتسمم. لقد أكلت أسوأ من هذا.

تحضر لي البورتش. البورتش لذيذ جدا. في قاع الطبق قطعة كبيرة من لحم البط.

* * *

عندما كانت آلاّ حاملا، كنا نعيش بصورة سيئة جدا. آلاّ كانت تأكل الخبز بالشحم الذي أعيدت إذابته. لم أكن أستطيع أكل الشحم، كنت آكل الخبز بزيت عباد الشمس. (في دار الأطفال كان الخبز المصبوب عليه زيت عباد الشمس، والمرشوش عليه الملح، يعتبر طعاما طيبا). في ذلك العام آلمتني معدتي لأول مرة في حياتي. كنا أيضا نطهو حساء من الحمص. آلاّ لا تأكل الحساء، أنا وحدي كنت آكله. الأمر بالنسبة إليّ كان أسهل مائة مرة، مقارنة بها، كنت أستطيع أكل الحساء ولم أكن حاملا. عندما وُلدت مايا، قررت آلاّ أن ترضعها. التغذية الطبيعية مفيدة جدا. لكن مايا كانت تأكل بشكل سيئ. حليب آلاّ كان يميل إلى اللون الأخضر. بسبب مشكلة صحية كانت تعاني منها.

(*) حساء من الكرنب والبنجر.

آلاّ كانت تتغذى في كل هذا الوقت على البطاطس فقط. آلاّ شخص معافى، تحتاج إلى أن تأكل مرات عدة، أكثر مني. ما تستطيع أن تأكله في مرة واحدة، أنا آكله في يوم. قررنا أن إحالة مايا إلى التغذية الاصطناعية ستكون أرخص من تأمين آلاّ بالتغذية الطبيعية.

* * *

جاء أحد المعارف.

- كيف تعيش؟

- بصورة اعتيادية.

- ماذا تأكل؟

- حساء الحمص.

- مع البطاطس؟

- طبعا .

- أما نحن فللأسبوع الثاني نأكل حساء الحمص من دون بطاطس.

أنا آكل حساء الحمص لثلاثة أيام فقط. عندي كيس بطاطس.

* * *

عمر مايا عام ونصف العام. امتنعت عن أكل العصيدة. أنا آخذ العصيدة وآكلها بهدوء. مايا تطلب في البداية مرتديلا، ثم كعك الدبس. لا يوجد هذا ولا ذاك، لكن ليست هذه هي المشكلة. إذا كنت جائعا فسوف تأكل كل شيء، إذا لم تفعل فاقض وقتك جائعا (قاعدة دار الأطفال).

مايا تمشي في الشقة وتفكر، ثم تقترب بهدوء من آلاّ وتقول: «ماما، اطبخي بطاطس». نأكل البطاطس بالملح وزيت عباد الشمس،

وأتذكر كيف كنا في دار الأطفال نطهو البطاطس بعد إشارة العودة إلى الغرف وذلك بالاستعانة بغلاية بسيطة الصنع. ذلك الذي توصلت إليه وأنا في الخامسة عشرة من عمري (تلاميذ الصفوف العليا فقط كانوا يستطيعون طهو البطاطس)، كان ذلك في وسع مايا منذ الولادة.

* * *

آلاّ تحضر الطفلة مايا من الروضة. تضحك. التقت بالطباخة. تلك تروي بفخر أن اليوم كان على الغداء دجاجة. «دسمة هكذا، كبيرة، الكل حصل على قطعة منها». في الروضة أكثر من مائة طفل.

كانت دجاجة واحدة، بالأحرى، دجاجة ونصف دجاجة. أضحك أيضا.

أنا سعيد لأن مايا تذهب إلى الروضة. لديها أصدقاء كثيرون هناك، هم كلهم معا يصنعون أشكالا بالطين يرسمون بالألوان. زد على ذلك، أن مايا بعد حضورها من الروضة، تأكل كل شيء يعطونها إياه، ولا تتدلل.

* * *

في الطريق من الروضة مايا تطلب من آلاّ أن تشتري لها قطعا من الخبز المجفف. قطعا من الخبز المجفف الاعتيادية بنكهة الفانيليا.

- ما بالك، عندنا الآن نقود، هل تريدين أن أشتري لك كعكة أو أي شيء آخر؟

- كلا، أريد قطعا من الخبز المجفف.

آلاّ تشتري قطعا من الخبز المجفف. مايا تجلس أمام الطاولة

وفي المســاء تقضم قطعا من الخبز المجفف. يبــدو أنهم أعطوهم قطعة من الخبز المجفف في فترة العصر، ومايا كانت تريد المزيد.

كانوا يعطوننا في دار الأطفال قطعتين.

* * *

عندما كنت أعيش في دار كبار السن، أدهشني شيء واحد. كانوا يوزعون العظم في المطعم بعد الغداء، عظم بقر عادي من الحساء. العظم كان فقط من نصيب قدماء المحاربين. اقتطع اللحم بدقة من العظم، لكن بمهارة كافية كان بالإمكان اقتطاع المزيد. تجمهر قدماء المحاربين أمام نافــذة التوزيع، كانوا يتشــاتمون، ويعددون مآثرهم وألقابهم.

سألت أخيرا أحد معارفي من المدرسة الداخلية، ما أخبار العظم، هل مازالوا يوزعونه؟

- ما بالك. لم يعودوا يطهون شــيئا مــن العظم منذ زمن بعيد. ليس ثمة عظم.

الحاضنات

الحاضنـــات الحقيقيات كـــن قلة، خصوصـــا الحاضنات كثيرات العنايـــة ورقيقات القلب. لا أتذكر أســـماءهن، بالأحرى، لا أتذكر كل أســـماء الحاضنات الطيبات. كنا نقسمهن فيما بيننا إلى «شريرات» و«طيبات». في ذلك العالم، عالم الأطفال، بدا الحد بين الخير والشر واضحا وبسيطا. لمدة طويلة لا أستطيع التخلص من عادة دار الأطفال السـيئة في تقســيم كل الناس إلى أقرباء وغربـــاء، أذكياء وأغبياء، طيبين وشـــريرين. ما العمل؟ لقد ترعرعت هناك. فالحد بين الحياة والموت رفيع، حيث الدناءة والســـفالة كانتا عُرفا. الإخلاص والطيبة كانا عُرفا أيضا. كانت الأمور مختلطة. على الأرجح، الضرورة كل مرة في الاختيار بين السيئ والجيد هي التي ولّدت فينا هذه القطعية.

الحاضنات الجيدات كن مؤمنات. كلهن. هـأنذا كتبت، ومن جديد قسمت الناس إلى فئات. لا أجد من هذا مفرا.

كان ممنوعا أن تؤمن. فكانـــوا يمنعوننا من الإيمان. حيث كان عندهـــم الإلحـــاد معروفا. يبدو هـــذا الآن بعيـــد الاحتمال، لكن هكـــذا كانت الحال. لا أعـــرف إن كان في وســـط المعلمين أناس مؤمنون. هذا شـــيء محتمل، إنهـــم كانوا كذلك. كان ممنوعا على المعلمين التحدث معنا عن هذا. كانوا يســـتطيعون طرد المعلم من العمل بســـبب إشـــارة الصليب أو بيضة عيـــد الفصح، لكن ليس الحاضنة. راتب الحاضنات كان قليلا، والعمل كثير. الراغبون في غسل الأرضيات وتغيير سراويل الأطفال كانوا قلة. كانوا ببساطة يغضون النظر عن إيمان الحاضنات. وكن يؤمنّ بصرف النظر عن

أي شــيء. كن يصلين طويلا أثناء المناوبات الليلية، ويشعلن شمعة جلبنها معهن. كن يعملن لنا إشــارة الصليب قبل أن ننام. في عيد الفصــح كن يجلــبن لنا بيضا ملونا وفطائر محــلاة. كان ممنوعا جلب المأكولات إلى دار الأطفال، لكن ماذا كان بوســع المســؤولين الصارمين عمله مع النساء الأميّات؟

الحاضنــات الجيــدات كن قلــة. أنــا أذكرهن كلهــن. أمّا الآن فســأجتهد لأحكي عن واحدة منهن. هذه قصة حقيقية سمعتها من إحدى الحاضنات. سأسعى في سرد ما حفظته ذاكرة الأطفال بقدر الإمكان على وجه الدقة...

* * *

أنا أعمل هنا منذ فترة طويلة. عندما أتيت ألقيت نظرة، والأطفال هنــا صغار، منهم الذي من دون رجلين، ومنهم الذي من دون يدين. وكلهم متسخون.

وبعدما تغســلينه، يأخذ بالزحف على الأرض فإنه من جديد يتسخ. بعضهم يحتاج إلى التغذية بالملعقة، وبعضهم إلى الغسيل بعد قضاء الحاجة كل ســاعة. كنت أتعــب جدا. في أول مناوبة ليليــة لم آو إلى الفراش لدقيقة واحــدة. أتوا بطفل جديد، كان طوال الليل ينادي أمه. جلســت على سريره، أخذت بيده، وهكذا بقيت منحنية عليه حتى الصباح. كنت طوال الوقت أبكي، وأبكي. وفي الصباح التالي ذهبت إلى القسيس طلبا للبركة، وذلك حتى أســتقيل من العمل. لا أســتطيع النظر إلــى حالتهم، أرثو للكل، قلبي ينفطر. وحتى القســيس لم يعطنــي البركة. يقول إن هذا الآن قدرك ومصيرك حتى آخر أيامك.

قد طلبت منه بشدة. وبعد ذلك عملت، وتصبّرت.

لكن على حد ســواء الوضع صعب. أنسخ أسماء كل الأطفال، الذيــن كنت أعتني بهم، على ورقة. حيــث كان عندي في البيت كراسة، إذن سأكتب فيها أسماءكم كلكم. وسوف أضع لكل واحد فيكم شــمعة في عيد الفصح. ســينتج عن ذلك شمعات كثيرة، سيكلفني ذلك غاليا، لكن على حد سواء سأضع لكل واحد شمعة ولأجل كل واحد سأقرأ الدعاء. لأن الله أمر بالدعاء من أجل كل الأطفال الأبرياء. واســمك نوعا مــا غريب - رُوبين، أرمني على الأرجح. الأرمن مســيحيون، أنا أعرف هذا بالضبط. تقول، إنك لست أرمنيا؟ هذا الذي فكرت فيه حالا، مادام والداه لا يقدِمان إليه، فإنهما كافران. الإنســان المعمّد لا يترك طفله. إنهم كلاب، ســامحني يا رب، أنا عجوز مجنونة، آثمة على الرغم مني. وأنت ســتكون مسجلا عندي في الكراســة من دون اسم العائلة. اسم عائلتك عجيب نوعا ما، ولن أســتطيع كتابته. الكل كتبوا أسماء عائلاتهم، أما أنت فمن دون اســم العائلــة. من المفترض قراءة الاســم أثناء الصلاة فقط، لكن على حد سواء هذا شيء سيئ، من دون اسم عائلة.

* * *

ماذا أضيــف إلى هذه القصة؟ لقد ترعرعــت، قرأت كثيرا من الكتــب المتعددة وأتصور نفســي ذكيا جدا. شــكرا للمعلمين الذين علموني القراءة. شــكرا للحكومة الســوفييتية التي ربتني. شــكرا للأمريــكان الأذكيــاء الذين ابتكروا الكمبيوتر لإمــكان طباعة هذا النص بسبابة اليد اليسرى.

شـــكرا لكل الحاضنـــات الطيبات لأنهن علمننـــي الطيبة، لذلك الدفء في نفســـي الذي حملته عبر كل المحن. شـــكرا للذي لا يُعبّر عنه بالكلمات، ولا يحسب بالكمبيوتر ولا يُقاس.

الأولاد

كنا عشــرة أشــخاص في العنبر. بالأحرى تســعة حيث لم نكن نحســب ڤوڤاجكا. ڤوڤاجكا لم يكن يتكلم. لــم يكن قادرا على أي شيء، كان فقط يأكل ويتغوّط.

كنا نســتيقظ مرارا على صراخــه. كان، كالمعتاد، يريد أن يأكل. كان يســتطيع أن يأكل كثيرا. كانوا يعطونه كمــا يعطون الكل، لكن هــذا الكم لم يكن يكفيه، فكان يصرخ. إنه طفل في الثانية عشــرة من عمره.

كنــت أنا وڤاســيليوك بعد. ڤاســيليوك كان يبلــغ من العمر حسب مظهره العشرين. رجلاه كانتا مشلولتين. كان قويا كالثور. بالأحرى، مثل كل الناس المتخلفين عقليا. ذات مرة أمســك برجل الحاضنــة التي كانت تغيظه، لم تســتطع أن تفلت منه، ولم تلتئم الكدمة على رجلها حتى فترة طويلة. الحاضنات كن يغظنه، الثور الــذي لا ضــرر منه، كن يلطمنه على ظهره أو كن يقلن شــيئا ما مزعجــا. مع ذلك كانت علاقتهن به جيــدة، كن يضعن له حصة مضاعفة من الأكل دائما.

أنا صبي في التاســعة من عمري. تصوروا شــخصا مشــلولا. مســتلقيا بكوعيه علــى الأرض ويتأرجح من جهة إلــى جهة. يفعل شــيئا ما، لكنكم لا تدركون بعد ما هذا الشيء. يزحف. كنت أزحف بســرعة، كنت أســتطيع الزحف ثلاثمائة متر خلال نصف ساعة، لو لم أكن أتعب. لكن بعد كل عشــرة أمتار إلى خمســة عشــر مترا

كنت مضطرا إلى الاستراحة. لكنني كنت أستطيع الزحف ! أنا وفاسيليوك فقط كنا نستطيع الزحف في العنبر، وكان هذا يميزنا عن الآخرين.

كانوا سبعة. لا أذكر كل الأسماء. ولم يكن يتعين عليّ معرفة أسمائهم. فقط ساشكا پادّوُبني كان يستطيع أن يجلس، وفي كل صباح كانت الحاضنات يجلسن على الأرض أمام طاولة منخفضة. الآخرون كانوا مستلقين على الأسرّة على مدار اليوم. كانوا يسمونهم «الأولاد».

احترامهم كان مطلقا في دار الأطفال، حتى زعيم دار الأطفال كان يأتي إليهم طلبا للنصيحة. كان في غرفتنا تلفزيون، وكنا نستطيع مشاهدته في أي وقت نرغب.

لقد وجدت نفسي مصادفة في هذا العنبر وعندما أحضروني في هذا الوقت توفي أحد الأولاد. كان هذا هو السرير المنحوس رقم ثلاثة. ومن قبلي نام عليه ثلاثة، ماتوا كلهم. لا أحد كان يريد أن يشغله، وأنا كنت حديث العهد.

وكانوا يريدون نقلي إلى عنبر آخر، لكن ساشكا پادّوُبني طلب منهم تركي فتركوني. وهذه قصة أخرى

* * *

في إحدى المرات أراد ساشكا الذهاب إلى المرحاض، ولم يكن فاسيليوك موجودا في الغرفة.

كان لديّ اختيار: الزحف إلى الحاضنة أو محاولة مساعدته بصورة مستقلة. أمسكت بأسناني شريط سرواله المطاطي، وسحبته إلي، دفعت «القصرية» إليه، فتبوّل حسب القانون غير

المُعلن لدار الأطفال، كنت أستطيع أيضا أن أطلب منه شيئا ما. وقد أصبحت شديد الوقاحة، عندما طلبت منه إعطائي أحد كتبه لقراءته. كانت عنده كتب كثيرة. كان دائما يقرأ شيئا ما أو يترجم من اللغة الألمانية.

- خذ «الفرسان الثلاثة».

- لقد قرأت «الفرسان الثلاثة»، وهو للأطفال، أعطني «كوكب سولاريس(*)».

- سوف لن تفهم منه شيئا.

- سأفهم.

- أنت عنيد، هذا شيء جيد. خذ «كوكب سولاريس»، ثم تحكي لي عن الذي فهمته.

قرأت «كوكب سولاريس» خلال يوم أحد. عندما سألني ساشا، عما فهمته من الكتاب، أجبته: لم يكن لازما على الشخصية الرئيسية الطيران، لكن كان عليه من قبل التمعن في الأمر وإدراكه مع المرأة وهما على كوكب الأرض. قال ساشا، إنني مازلت صغيرا لا أفهم شيئا. لكن منذ ذلك الوقت بدأ يعطيني الكتب. عموما، لقد وُفقت. كانت علاقة الأولاد بي جيدة.

* * *

جاء إلينا الرؤساء. لقد كانوا طلبة المعهد العالي للمعلمين. جمعونا في قاعة الاحتفالات، غنى لنا الرؤساء الأغنيات ورحلوا. بالأحرى، لم يرحلوا كلهم. وحسب برنامج المساعدة الرئاسية، كان على الطلبة أن يقوموا معنا بإجراءات ما، مثل المساعدة في إنجاز

(*) كوكب مائي خيالي.

الـــدروس وهلم جرا. لكـــن الأغلبية كانت تنظر إلينـــا كما ينظرون إلى البرُصاء (أي المصابـــين بمرض البرص). هذه العبارة «كما إلى البرُصاء» عرفتها فيما بعد بالمطالعة، وأعجبتني جدا. وكيف يمكن أيضا التعبير عن العينين المحملقتين والقرف المخفي بشكل سيئ؟

لكـــن البعض حضر، قد يبـــدو غريبا، كن طالبـــات، ذكاؤهن عادي. طيبة طبيعية وشفقة، وربما جاء حب الاستطلاع بهن إلينا مرة أخرى.

إحدى هؤلاء الصبايا دخلت إلينا أيضا.

- يا أولاد، بماذا أساعدكم؟

- هل ستشربين الشاي الثقيل؟

- ماذا؟

- الشاي الأسود المركز.

- سأشرب.

- إذن أخرجـــي من تحت مرتبتـــي الغلاية، المرطبان من الخزانة الصغيرة، اذهبي لجلب الماء واشـــحني كل هـــذا في الكهرباء تحت السرير.

ڤوڤكا موســـكو قال هذا. كانـت هـذه كنـيته: «موسكو». لمـاذا؟ لا أعلم.

هـــذه الطالبة كانت عندنا بضع مـــرات، الأولاد كانوا يضيفونها بحلوى الشـــكولاتة، ويحكون لهـــا النكات. كنا نشـــعر معها بالخير والفرح.

في إحدى المرات تأخرت عندنا، وقد حان وقت ذهابها. ولم يكن أحد يريد، طبعا، أن يدعها تذهب.

- يا أولاد، يجب عليّ أيضا أن أحضّر واجب الفيزياء والرياضيات، ولن يسمح لي أحد بالنسخ دفعة واحدة.

- أنتِ في أي سنة؟

- السنة الثانية.

- الكتاب الدراسي معكِ؟

- في الحقيبة.

- أخرجيه، اقرئي الواجب.

قال هذا غينكا من السرير الذي في الزاوية.

أخرجت الكتاب، جلست لتقرأ.

- لكن أنا هنا لا أفهم شيئا.

- أنا أيضا. أنا أدرس الرياضيات العليا عاما واحدا فقط. اقرئي بصوت مرتفع.

- والمعادلات؟

- اقرئي المعادلات أيضا.

كانت تقرأ كتابها المدرسي، كنا سعداء لأنها لم تذهب بعد، ولم نكن نشك في أن غينكا سيحل كل مسائلها.

كانت تقرأ طويلا، وبعد ذلك طلب منها غينكا الجلوس أمام الطاولة والكتابة.

- لكن ألا ترى، إنني أكتب!

- لكنك ترين؟

- أرى.

- اكتبي إذن.

أملى عليها حلول كل مسائلها وسكت.

- وهل من الممكن أن أطابق الحلول مع الأجوبة؟ عندي هنا الأجوبة منسوخة.

- كلها تطابقت ! لكن كيف استطعت؟ من دون أن تنظر في الكراسة. إنك قصير !

كان وزن غينكا عشرة كيلو غرامات. علاوة على أنه لم يكن يستطيع المشي، كان عنده شيء ما في الغدة الدرقية، لم يكن ينمو. عادة ما كانوا يغطونه حتى الذقن باللحاف، ومن تحت اللحاف كان يظهر وجه ولد في الثامنة من عمره. عموما، كان هذا إلى الأحسن أيضا. كانوا يخرجونه أحيانا إلى الشارع. أنا وفاسيليوك كنا نستطيع الزحف على الأسفلت بأنفسنا. أما الآخرون فلم يروا الشارع.

- عمري ثمانية عشر عاما. أنا قصير مثلك.

- آه، يا أولاد (سمّتهم «أولادا»، لم يكن أحد يسميهم كثيرا هكذا. وأنا اعتقدت أنكم مازلتم تدرسون في المدرسة.

- رسميا ندرس. نحن تلاميذ راسبون. والبعض أمضى عامين في صف واحد. هذا ببساطة لأن مدير دار الأطفال عندنا طيب. إنه لا يريد أن ينقلنا إلى دار كبار السن. هناك لن يعتني بنا أحد، وسوف نموت.

- لماذا لا تلتحقون بالمعهد العالي؟ كنتم ستكونون هناك من الطلاب الممتازين.

- في المعهد العالي يأخذون فقط القادرين على المشي.

هي بسرعة - بسرعة استعدت وذهبت. زحفت إلى الممر. كانت السماء تمطر، وكنت أريد أن أزحف إلى الخارج.

كان الطقس معتدلا، إنه خريف متأخر أو ربيع مبكر. لم يكونوا يغلقون أبواب الدخول، وكنت أحب أن أزحف إلى الخارج مباشرة والنظر إلى المطر. كانت نقاط متفرقة من المطر تتساقط إلى الداخل، لقد كانت تتساقط عليّ، كنت أشعر بالفرح والحزن في آن واحد.

لكن في تلك المرة ما كان أحد يشغل مكاني عند الباب. كانت تستند بتثاقل إلى قائمة كتف الباب، تلك الطالبة ذاتها كانت تقف بشراهة وبعمق كانت تدخن وكانت تبكي. لا أذكر، ماذا كانت ترتدي؟ أذكر فقط حذاء ذا كعب عال. كانت جميلة جدا.

كان يبدو لي أنني لم أر أبدا مثل هذه الفتاة الجميلة. كانت تدخن وتبكي، ثم أكملت تدخين السيجارة وذهبت تحت المطر، من دون رداء ومن دون مظلة.

ولم تأت إلينا بعدها كثيرا.

* * *

وصلت لجنة من موسكو. نكّلوا بالمدير، ونقلوا كل الأولاد إلى دار كبار السن. جاءت مربيتهم إلى صفنا: «سأعمل عندكم الآن حتى التخرج». لقد ذهبت إلى الصف الخامس، تم الانتهاء من المجموعة الابتدائية، والآن نحتاج مشرف صف لنا ومربية كذلك.

بعد شهر من نقل الأولاد إلى دار كبار السن، ذهبت لزيارة الأولاد الذين تحت وصايتنا. وصلت وأخبرتنا بكل شيء.

بقي على قيد الحياة من ثمانية أشخاص شخص واحد هو غينكا. كانت دار كبار السن تتألف من أماكن منفصلة على نمط الثكنات. جرى تصنيف كبار السن والمعوقين حسب درجة الإعاقة.

كان يرقد «أصحابنا» في ثكنة منفصلة مع الذين كانوا على وشك

الموت. وبمحاذاة الحوائط امتدت صفوف الأســـرّة، التي كان يسيل منها البول. لم يكن أحد يقترب منهم. جلبت لهم الحاضنة «شــراب كوكتيل» فــي مرطبانات كبيرة. قالت عن غينكا: «إنه شــرير». أمّا الكوكتيل فخذوه، القادرون على المشي سيأكلونه على حد سواء».

ســألتها، ماذا ســيحدث معي عندما أكبر؟ هل سينقلونني أيضا إلى دار كبار السن، وسأموت؟

- طبعا.

- لكن عندئذ سأكون في الخامسة عشرة، لا أريد أن أموت هكذا مبكرا. يظهر أن كل شيء عبث، لماذا إذن الدراسة؟

- لا شــيء عبــث. يجب أن تدرســوا لأنهم يطعمونكــم مجانا. وعموما، هل ذاكرت دروسك؟

منــذ ذلك الوقت تغيــرت كثيرا. كانت الدمــوع تظهر في عيني لأقل سبب، وكنت أبكي. لم يكن يساعدني الإقناع ولا التهديد. كنت أصرخ بصوت عال.

اســتدعوا لي الطبيب. جاء شــاب صغير، جلــس بجواري على الأرض، ابتســم وسألني شــيئا ما. أجبته بابتســامة. لم أكن أريد التحدث معه، لكنني كنت مضطرا.

- لماذا تبكي مرارا؟

- لا أبكي مرارا.

- لماذا بكيت بالأمس؟

- كنت أزحف، اصطدمت برأسي وبدأت في البكاء.

- لا أصدقك. مربيتك حكت لي كل شيء. أنت تبكي طول الوقت. هذا شيء غير طبيعي. لماذا لا تريد التحدث معي؟

- لأنك طبيب نفساني. كلهم طيبون في البداية، وبعد ذلك يأخذونني إلى المستشفى. وفي المستشفى يعطونني الحقن وأقراصا حتى أصبح مثل ڤاسيليوك.

- من قال لك هذا الهراء؟ لن يأخذك أحد. من هو ڤاسيليوك؟

- ڤوڤكا موسكو أخبرني عن المستشفى.

- وأين ڤوڤكا الآن؟

- مات. كلهم ماتوا. كانوا طيبين وأذكياء.

أمّا ساشكا پادّوُبني فكان يعطيني كتبه لأقرأها. والآن هم غير موجودين، أمّا ڤاسيليوك فهو حيّ. نقلوه إلى سكن داخلي آخر، وهو طيّب، لأنه يستطيع الزحف يذهب إلى الحمام بنفسه.

- ومن أخبرك، بأنهم جميعا ماتوا؟

- الحاضنة. وقالت لي أيضا، إنهم سينقلونني أيضا، حينما أبلغ الخامسة عشرة. وأنا الآن في العاشرة.

الحاضنة المبتسمة تنظر إلى الطبيب وقد تملكتها الحيرة وتقول: «وماذا إذن؟ وما العيب في ذلك؟ أنا أخبرت كل الصف بذلك».

بدأ الطبيب بالتدخين. لأول مرة كنت أرى فيها شخصا بالغا يدخن مباشرة في العنبر؟ لسبب ما كان يعجبني .

- هل تخاف مني؟

- نعم.

لم يكن شريرا بالمرة. أكمل التدخين، نظر إليّ وذهب. أمّا غينكا فمات سريعا جدا.

أمريكا

هذه البـــلاد كان يجب بغضها. هكـــذا كان المتبع. كان يجب كره كل البلاد الرأســـمالية، لكن، في أمريكا خاصة كان يعيش الأعداء، البورجوازيون، الذين يمتصون دم الطبقة العاملة.

كانت الإمبرياليـــة الأمريكية تجهز لنا القنبلـــة الذرية. والعمال في أمريكا كانوا يجوعون ويموتون باســـتمرار، وأمام سفارة الاتحاد الســـوفييتي في الولايات المتحدة الأمريكية كان ينهمر تيار لا نهائي من الراغبين في تغيير جنسيتهم. هكذا كانوا يعلموننا، كنا نصدق.

كنت أحب أمريكا، أحببتها منذ التاسعة من عمري. وعندما كنت في التاســـعة من عمري على وجه الخصوص أخبروني أنه ليس ثمة معوقون في أمريكا. إنهم يقتلونهم كلهم. إذا ولد في الأســـرة معوق، الطبيب يحقن الطفل حقنة قاتلة.

- الآن تفهمـــون يا أطفال، كم أنتـــم محظوظون لأنكم ولدتم في بلادنا!

في الاتحاد السوفييتي لا يقتلون الأطفال المعوقين. إنهم يعلمونكم، يعالجونكـــم ويطعمونكم مجانا. يجب عليكم أن تدرســـوا جيدا، كي تحصلوا على مهنة ضرورية.

لا أريـــد أن يطعموني مجانا، لن أســـتطيع أبـــدا الحصول على مهنـــة ضرورية. أنا أريد حقنة، حقنـــة مميتة. أنا أريد الذهاب إلى أمريكا.

المأفون

أنـــا مأفون. ليس هـــذا لقبا مســـيئا، إنه ببســـاطة إثبات لأمر واقع. إن مســـتواي العقلي غير مرتفع بدرجـــة كافية لأجل الوجود المســـتقل، ولكن المهم أن أبقى حيا. أعـــرف منذ الطفولة، أن الأفن نوعـــان تعويضي وغير تعويضي. الأفن التعويضي قصور عقلي، في هذه الحالة يكون الشـــخص قادرا على العيش في المجتمع من دون مســـاعدة الآخرين. وكمثـــال نمطي للأفن التعويضـــي فإنهم عادة يُحضرون أناسا ذوي مشاكل عقلية، وبجهود المعلمين والأطباء تيّسر تعليمهم مهنـــة الدهّان أو البّواب. المعلمـــون علموني حل المعادلات الصعبة، كان الأطباء باجتهاد يعطونني الأدوية بكثرة، وكانوا يضعون ربطات الجبس الصلبة بعناية، وقد اتضح أن جهودهم لا طائل منها. لم أتمكن من التقاط فرشة الدهان إلى الآن.

* * *

إحدى ذكريات الطفولة هي التنصّت على حديث الكبار.

- أنت تقول، إنه ذكي، لكنه لا يستطيع المشي!

منذ ذلك الوقت لم يتغيّر شـــيء. كانوا يقولـــون عن إعاقتي في حياتي كلها كما عن إمكانية أو عدم إمكانية القيام بأنشطة ميكانيكية مثل: المشي، الأكل، الشرب، استعمال المرحاض.

لكن الأهم كان دائما يظل هو الأهم: لم أكن أستطيع المشي.

لم يكن الكبار تقريبا يهتمون بالأمور الأخرى أبدا.

لا تستطيع المشي، أنت مأفون.

دار الأطفال التالية، ترحيل دوري. لقد نقلوني من مستشفى إلى دار الأطفال، حيث كانوا يحاولون وضعي على رجلي لمدة عامين بلا جدوى.

كان العلاج بسيطا. وضعوا رجلي الملتويتين عند الركبتين في الجبس، ثم كانوا يقصون الجبس دوريا في الأماكن الضرورية، كانوا يضغطون على المفاصل ويثبّتون الرجلين في الوضع الجديد. بعد عام ونصف أصبحت الرجلان مستقيمتين. حاولوا أن يضعوني على العكازتين، وأدركوا أن هذا عديم الجدوى، وخرجت من المستشفى. في أثناء العلاج قدماي كانتا تؤلمانني باستمرار، لم أكن أفقه جيدا.

وحسب القانون كان كل تلميذ في الاتحاد السوفييتي يملك الحق في التعليم. أولئك، الذين كانوا يستطيعون، كانوا يحضرون إلى الصفوف المدرسية في المستشفى، وكان المعلم يحضر إلى الباقين مباشرة في العنبر. حضرت المعلّمة إليّ أيضا مرتين، لكن بعد أن أيقنت بلادتي المطبقة تركتني وشأني.

كان المعلمون يشفقون على الطفل المسكين، ووضعوا لي في كل المواد علامة «مقبول». وهكذا كنت أنتقل من صف إلى صف.

لقد أخذوني إلى المستشفى من الصف الثاني، وخرجت من المستشفى وأنا في الصف الرابع. كل شيء طبيعي، كل شيء حسب القانون. أحضروني إلى الصف، وضعوني على الأرض.

بدأ درس الرياضيات. كنت محظوظا. في ذلك اليوم أعطتنا المدرسة امتحانا تحريريا جديا في الرياضيات - شيء جدي، لأجل هذا الإجراء الجدّي خصص مجلس المدرسة التربوي درسين متتاليين، كل درس مدته خمس وأربعون دقيقة.

سألتني المعلمة سؤالين استوضحت منهما أنه يجب نقل الولد إلى الصف الثاني، وهدأت. نادت الحاضنة، وأوصت بحملي إلى مبنى النوم.

أتت الحاضنة. نظرت إليّ.

– لكنني حملته الآن، أحمله من جديد؟ أنا لست حصانا، أنا أيضا لي حقوق. يالكم من متعلمين. لم يستوضحوا الأمور، أمّا أنا فهل عليّ أن أهدم صحتي؟ أنا، ربما، لولا الحرب، لأصبحت معلمة أيضا.

كانت الحاضنة تتكلم بصوت مرتفع، كانت المعلمة تستمع إليها بانتباه وأخيرا سلّمت. طلبت بأدب بالغ من الحاضنة الخروج، اعتذرت لها عن الإزعاج المُسبب. ذهبت الحاضنة. كان من الممكن البدء في الامتحان التحريري.

كتبت المعلمة الواجب بسرعة على اللوحة. انتهت من الكتابة، جلست أمام الطاولة.

نظرت إلى اللوحة ولم أفهم شيئا. كانت هناك حروف مع الأرقام الموجودة في المسائل. كنت أعرف جيدا، ماذا يعني الزائد والناقص، وقبل المستشفى درست أحسن من الكل، لكن علامات الضرب بدت لي فلتات قلم بسيطة.

– هنا خطأ في الأمثلة – بدأت بلا سابق إنذار – لماذا كتبتم الحروف مع الأرقام؟ لا يجوز جمع الحروف .

– هذا ليس خطأ. هذه الحروف هي في الحقيقة تحدّد الأرقام. أي أرقام تحل محل الحروف، هذا الذي يجب أن نجده. هذا يُسمى حل المعادلة.

- ينتج أنه، إذا واحد زائد «خا(*)» يساوي ثلاثة، «خا» يساوي اثنين؟ هذا كما في اللغز في المجلة.

- ليس «خا»، إنما «إكس» لكن، عموما، أنت محق.

- ولماذا إذن في المثال الثاني «إكس» مكتوب بين رقمين؟

- هذا ليس «إكس» هذه علامة ضرب. تُكتب إما مثل النقطة، وإما مثل الحرف الروسي «خا». لقد كتبت على اللوحة علامة الضرب مثل حرف «إكس»، حتى يراها جيدا، الذين يجلسون أمام المكاتب المدرسية في الخلف.

ماذا يعني الضرب؟ لم أكن أعرف. الأطباء في المستشفى لسبب ما كان يهمهم أكثر شيء في العالم، كم يكون اثنان في اثنين، ثلاثة في ثلاثة. إذن كان جوابي غير صحيح، كانوا يضحكون بصوت مرتفع، ويذكرون الإجابة الصحيحة أحيانا. كانوا يعطونني حلاوة أو بسكويتا. لو أنهم شرحوا على الفور، إن الضرب هو جمع متتابع، لما كان الوضع بالنسبة إليّ أسهل. قدماي كانتا تؤلمانني بشدة، لم أكن أحب الأطباء.

المعلمة تشرح لي الضرب.

- لماذا أشرح لك كل هذا؟ - تتابع المعلّمة - أنت لا تعرف حتى جدول الضرب.

- أعرف، لكن فقط حتى الخمسة. أذكر أيضا أن ستة في ستة = ستة وثلاثين.

- وسبعة في ثمانية؟

(*) في اللغة الروسية (حرف X إكس في الإنجليزية) تقرأ خا كما في اللغة العربية ولكن من غير الهمزة.

- الآن.

أبـدأ بصـوت مسـموع في جمـع الأرقـام. أعطنـي الجواب الصحيح.

- أنت ماهر، المعلمة تمدحني.

- هذا سـهل - أنا أقول - عندما تشـرحون فإن كل شيء سهل. واصلوا الشرح.

- لن تفهم.

- سأفهم. لكنكم قلتم بأنفسكم إنني ماهر.

المعلمـة تقترب بنشـاط من اللوحـة وتبدأ الـدرس. هي تكتب وتكتب.

من وقت إلى آخر تتوقف وتعيد سؤالها: «هل فهمت؟»

أنا أفهم كل شيء.

تشـرح لي الرياضيات، أقاطع كلامها بالأسئلة. استمروا، أطلب منها، اسـتمروا. نبتسـم بعضنا لبعض. كل شـيء إلـى هذا الحد سهل.

- كل شـيء. هذا كل شـيء. أنا شـرحت لك كل الذي يجب أن تعرفه لهذا اليوم كتلميذ في الصف الرابع.

- هل أستطيع أن أكتب الامتحان التحريري؟

- غير واثقة من نجاحك، لكن حاول.

أنا أحاول.

السـاعتان تمـران بسـرعة جـدا، الصف يقـدم الامتحان التحريري. المعلمة تنحنـي، تأخذ مني ورقة الامتحان وتراجعها بسرعة.

تنظر إليّ. نظرتها باردة وغريبة، ليس كما كانت عند اللوحة منذ قريب. أدرك كل شيء.

أن تكون مأفونا فليس صعبا إلى هذه الدرجة. الكل يتحاشى النظر إليك، لا يلاحظونك. أنت لست إنسانا، أنت لا شيء. لكن أحيانا بسبب الطيبة الطبيعية أو للضرورة المهنية يوضح المتحدث، أنك من الداخل مثل الكل. في لحظة واحدة تتبدل عدم المبالاة إلى الإعجاب، والإعجاب إلى يأس أصم أمام الواقع.

أنا لا أنظر إلى المعلمة. كلهم سواء. أنا واثق، بأنها في هذه اللحظة تفكر في الشيء نفسه، الذي يفكر فيه الكل - في رجليّ. الرجلان - الشيء الواضح والأهم، أمّا الرياضيات فهذا شيء تافه، هراء، تسلية.

ساشا

نحن نعرف بعضنا البعض من سن الخامسة. كان يؤذيني. بعد ذلك تصادقنا. كانت أمه مرارا تعطيني الحلاوة، وذات مرة أهدتني لعبة بزنبرك.

امرأة مسيطرة، قوية وطيبة جدا، ربت ولدا خيّرا .

منذ وقت قريب جدا - قبل خمسة أعوام - علمت أنها أرادت أن تتبناني.

لم يسمحوا لها. عندما أصبحت شخصا بالغا سألتها: «لماذا؟»، فهمت كل شيء وببساطة أجابت:

- لما شعر ساشا بالملل إلى هذا الحد. كنتما ستلعبان معا. كنت ستلتحق بالمعهد العالي، أنت ذكي، ليس كابني البليد. كنت سأجعل منك بروفيسورا.

نظرت في عيني هذه المرأة الروسية الذكية، وصدقت أن لو سمحوا لها لشقت طريقها في الحياة، واجتازت كل المحن، وأخذتني في حضنها إلى المحاضرات، لكنها كانت ستجعل من ذلك الولد الإسباني أسود العينين بروفيسورا في الرياضيات. هي ليست طبيبة ولا معلمة، تبيّنت في عيني الطفل ذي الخمسة أعوام الشيء الذي ستحاول التعرف عليه بلا جدوى لجان طبية عديدة. أعرف أنها ما كانت لتقرأ التشخيصين الخاصين بي عن «نشاط المخ المتبقي» أو «الأفن». رأت عيني.

لكنني سأكتب عن ساشا. ابنها. عن الولد الذي كان لديه أم.

* * *

أذكر بشكل سيئ تلك الطفولة البعيدة، عندما كنا أطفالا صغارا. عرفت ساشا بحق، عندما جمعنا القدر في إحدى دور الأطفال المتتالية الخاصة بي.

كان يزحف في الممر ويغني.

... يخرج إلى الحلبة الأقوياء،

وبحركة من الكتف يقطعون السلاسل.

كان ساشا يتميز عنا للغاية. أمه مسؤولة كبيرة في المنظومة التجارية. كانت تربيه ببساطة. كانت تأخذه معها إلى العمل وتريه الجانب الحقيقي للحياة. كان يعرف كل شيء عن الحسابات، الفواتير، كيف يتم توزيع الناقص(*)، ولماذا كانوا يعطوننا على الإفطار قليلا من العصيدة.

كان يزحف في الممر ويغني. كان صوته عاليا، يُسمع من بعيد. كان يسلم بصوت مرتفع على الحاضنات أو المعلمين الذين كان يقابلهم في طريقه. كان يسميهم «مجموعة المستخدمين».

أدخلوه المدرسة متأخرا، أمه أضاعت كثيرا من الوقت والجهد، من أجل شفائه، كانت تريد رؤية ابنها سليما وسعيدا مثل كل الأمهات. إذ إنه كان أكبر بكثير من زملائه في الصف.

كان يصدمني أسلوبه في الغناء بصوت مرتفع. لم يكن يعجبني، كيف كان يتكلم مع الحاضنات. كثيرا جدا كان يخاطبهم بـ «أنت(**)

(*) ظاهرة كانت موجودة في الاتحاد السوفييتي عن المنتجات التي لا يمكن شراؤها بالطرق العادية.

(**) صيغة التخاطب باللغة الروسية «أنتم» للاحترام و«أنت» يخاطب بها الأطفال أو للتقليل من شأن الشخص الموجه إليه الحديث.

«أنت، يا مانيا، لا تبخلي، ضعي عصيدة أكثر. وضعي كمية إضافية للولد. أنت تعتقدين أنه إذا كان من دون والدين ولا أحد يدافع عنه، فلا ينبغي إطعامه إطلاقا؟»

وقتئذ لم أكن أدرك بعد أنه كان يخفي حيرته خلف الفظاظة المتعمدة.

كنت أعتبر الحاضنات أنصاف آلهة، أما هو فردا على الكلمات البذيئة أو الوقحة كان يرد بالطريقة نفسها.

لم أكن أفهم شيئا في ذلك الوقت.

* * *

أرسلوا إلى ساشا طردا. أم ساشا كانت تدرك أن الحياة في دار الأطفال ليست عسلا وكانت ترسل إليه طرودا كبيرة فيها مأكولات. أمّ مُحبة، كانت تريد أن يكون لساشا أصدقاء، وأن يستطيع الدراسة في المدرسة، لهذا السبب أحضرته إلى دار الأطفال. كانت تأخذه إلى البيت في كل العطل المدرسية وفي الصيف، وكانت تزين حياته في دار الأطفال كيفما استطاعت، كانت ترسل إليه الطرود، كانت تترك له نقودا.

الأمهات كن مختلفات. الأمهات الغبيات جدا كن يحضرن ويرسلن للأطفال الحلاوة. الأمهات الذكيات كن يحضرن الشحم، الثوم، المعلبات المنزلية - عموما، طعام طبيعي.

أم ساشا لم تكن فقط أما ذكية، كانت أيضا مسؤولة كبيرة. كانت ترسل طرودا فخمة فيها الشكولاته واللّحم المعلب(*)، الأناناس المعلب وعصير الأفوكادو.

(*) اللحم المطبوخ في عصيره والمعلّب.

في ذلك اليوم أرسلوا إليه طردين دفعة واحدة، وزن كل منهما أحد عشر كيلو غراما. كان ساشا يفتخر بهذا الوزن على الأخص.

- حسب قواعد البريد السوفييتي مسموح للأشخاص طرود وزنها عشرة كيلو غرامات، لكن... (هنا توقف) في الحالات الاستثنائية يقبلون طرودا وزنها حتى أحد عشر كيلو غراما.

لم نكن نفهم شيئا حينئذ في قواعد البريد، لكن كنا نشارك ساشا سعادته بالكامل. كلما كان الطرد أكبر كان أحسن، هذا مفهوم.

أحضرت الحاضنة له طردين، وهي تلهث بصعوبة وتشتم الوالدين المحبين للأطفال.

- يا ساشا، حسب لوائح دار الأطفال أستطيع إعطاءك في كل مرة ليس أكثر من مائتي غرام من المأكولات. حصتكم اليومية متزنة، والإفراط في الأكل مضر. يجب أن أتحقق من جودتها بصورة تمهيدية.

قالت هذا عبثا .

- وهل ستجربون عن طريق جهاز خاص أم، عذرا، ستتذوقون؟

لا أرى جهازا لسبب ما. إذن لنتفق على هذا النحو. أنتم تجربون صفيحة اللحم المعلب وصفيحة الأناناس المعلب، وتتركون لي الباقي، ونفترق. هل هذا يناسبكم؟

- كيف استطعت أن تفكر هكذا؟ لا أحتاج إلى لحمك المعلب. اختر ما يعجبك، وسآخذ طرديك.

- إذن. أنا الآن لن أختار شيئا، خذوا الطردين. غدا أحضروهما من جديد، وأنا أيضا لن أختار شيئا. أنتم ملزمون بحمل هذين الطردين.

ستحملونهما لي كل يوم لمدة شهرين حتى تصل أمي. وستشرحون لأمي عن الإفراط في الأكل ومراقبة جودة المواد الغذائية. صدقوني، هـــي تعمل فـــي التجارة وتعرف كل شـــيء عن مراقبـــة جودة المواد الغذائية.

منظور التحدث مع أم ساشا لا يسر الحاضنة.

ساشـــا ولد ذكـــي. يدرك أنـــه يجـــب أن يترك للخصـــم طرقا للتراجع.

- عندي فكرة ! تحققوا الآن ببســـاطة من تاريخ الإنتاج على كل الصفائح والعلب، واســـحبوا المواد الغذائية المنتهية صلاحيتها. أما فيمـــا يتعلق بالمائتي غرام فلا تقلقـــوا. لن آكل المعلبات بمفردي ولا في مساء واحد.

الحاضنة ســـعيدة بمثل هذا التحول في الأمور. لا أحد يريد التخاصم مع أم ساشـــا. بالإضافة إلـــى ذلك فهي تدرك أن الأم لن ترســـل إلى ابنها أي شـــيء كيفما اتفـــق. تفحـــص كل المواد الغذائيـــة بإخلاص، لا وجود للمواد المنتهية الصلاحية. الطردان يبقيان لساشـــا، وهو من ســـخائه يعرض علـــى الحاضنة اللحم المعلب. الحاضنة ترفـــض. عندئـــذ يتـــناول ســـاشـــا من العـــلبة صفيحة أناناس معلب.

- عندكم أطفال. أعطوهم هذا.

الحاضنـــة تتردد. كانت تود لو أنها أخذت الأناناس إلى أطفالها، لكنها مازالت زعلانة من ساشـــا، من أسلوبه في الكلام معها - مع ممثلة السلطة ومع شخص كبير. «للأطفال، للأطفال» - ساشا يردد وينظر في عينيها.

الحاضنة تبتسم فجأة، تأخذ الأناناس وتتصرف. هي خالة طيبة وتدرك أن ساشا لا يغضب عليها.

* * *

الاتحاد السوفييتي - بلاد النقص العام.

النقص هو حينما لا يوجد شيء ما في المبيع ولا يمكن شراؤه بأي مبلغ من المال. موظفو دار الأطفال كثيرا ما يلجأون إلى ساشا ليطلبوا منه «الحصول» على النقص. ساشا يرفض في أغلب الأحيان. لا يريد أن يلعب ألعاب الكبار. ليس شريرا ولا طماعا، يعرف ببساطة أن أمه لا يسعها تزويد الكل بالمواد التي يصعب الحصول عليها.

الحاضنة تطلب منه «الحصول» على حبوب الحنطة السوداء. حبوب الحنطة السوداء شيء يصعب الحصول عليه.

أمها المريضة بداء السكري تحتاج إلى هذه الحبوب، أمها لا تأكل شيئا، بالأحرى تحتاج إلى حمية صارمة.

من ضمن المواد الغذائية المسموح بها عصيدة الحنطة السوداء. ساشا يكتب رسالة إلى أمه، وهي ترسل الحنطة السوداء.

الحاضنة تحضر لساشا الطرد. في الطرد كيلو غرامان من الحنطة السوداء. تنظر إلى ساشا. تنتظر.

- حبوب الحنطة السوداء، من الصنف الأول - يقول ساشا - سعر الكيلوغرام ثمانية وأربعون كوبيك(*). هنا كيلوغرامان. المطلوب منكم ستة وتسعون كوبيك.

- حسنا، يا ساشا، سأسجل أن لديك ستة وتسعين كوبيك.

(*) جزء من مائة للعملة الروسية الروبل.

الأمر ينحصـــر في أنه كان ممنوعا على الأربّاء (المتربين في دار الأطفال) أن تكون لديهم نقود.

الأمهات والآباء الأغبياء كانوا يعطون النقود للحاضنة. كان نزيل دار الأطفال يســتطيع الطلب من الحاضنة، وكانت تحضر الشـــيء المطلـــوب في المناوبة التالية. على هذا المنـــوال كان من الممكن على سبيل المثال، شراء، حلاوة أو قلم رصاص. لكن كان لا يسمح الطلب من الحاضنة شـــراء أي شيء ممنوع. علاوة على النبيذ والسجائر، كانت معلبات الســمك، البيض، المعجنات ممنوعـــة، وكل المأكولات التـــي كانت تحضر فـــي المنزل. لا داعي للتوضيـــح أن النقود كانت عندنا تقدر أعلى بكثير من أي شيء آخر.

- كلا. لا تسير الأمور هكذا. هذه ليست تجارة. الخمسون روبل الخاصة بي موجودة عندكم. ولن تعطوني إياها؟

- لن أعطيك. هذا ممنوع. ولكن ماذا ستفعل بالحبوب النيئة؟

- سأبيعها للخالة دوسا. هي حاضنة، لا يهمها حظرك.

- لكنني أحتاج إلى حبوب الحنطة السوداء لأمي. أنت قد وعدت.

- ليس لدي أيّ شيء ضد أمك. فلتأكل عصيدة الحنطة السوداء وتسعد. لكنني وعدت أن أبيعكم الحبوب وليس إهداءها.

- حسنا. خذ روبل، ونكون قد تخالصنا.

- كلا. أنتم مدينون لي بســتة وتسعين كوبيك بالضبط. لا يوجد عندي أربعة كوبيكات.

الحاضنة تنضم إلى اللعبة. تذهب لإحضار الفكة.

تمت الصفقة.

* * *

على الإفطار يعطوننا عصيدة الحنطة السوداء. عصيدة الحنطة السوداء شـيء نادر في دار الأطفال. يعطون ملعقتين من العصيدة لكل واحد، نحن سـعداء. شـخص واحد لم يكن سعيدا هو ساشا. يشـتم بكلمات بذيئة، تنتفـخ عروقه على رقبته، يقـول باختصار: «أوغـاد»، يأخذ من على الطاولـة حصته من العصيدة ويزحف إلى الغرفة، حيث تأكل الحاضنات.

ساشا لديه بدن شخص سليم. رجلاه ملتويتان في عقدة لا يمكن تصورها، يد واحدة مشـلولة. يقترب زحفـا من غرفة الحاضنات، يفتح برأسه الباب وبيده السليمة يرمي في الغرفة طبق العصيدة.

فـي غرفتهن تجلس الحاضنة أمام الطاولـة مع ابنتها وزوجها. أمام كل واحد - طبق مليء بالعصيدة.

يرفع الرجل رأسـه عن الطبق. يرى ساشا ويسمع كلماته. ساشا يدلي برأيه بذلك المعنى، إن الحاضنة ليست فقط بذاتها التي تسمن على حسـاب مصيبة الآخرين، ولكن أيضا تطعم ابنتها ذات الوجه القبيـح الممتلئ وزوجها. طبعا، ساشـا يعبّر عن هذا كله ليس بمثل هذه الكلمات. يعبّر بلغه روسـية عادية بشـتائم ذات كلمات بذيـئة. لا أجرؤ علـى ترديد هذه الكلمـات. الرجل يسـقط الملعقة وفيها العصيدة ويقول ببساطة: «مانيا، فلنخرج».

ساشا يزحف مبتعدا عن المدخل إلى الغرفة، وهم يخرجون.

مانيـا تعود وتحت عينها كدمة مع دلو مليء بالعصيدة. **يظهر** أن العصيدة كثيرة في المطعم، كانت ببسـاطة **متكاسلة عن حمل** دلو مليء.

* * *

اتهموا ساشا بأنه يدخن. كانت معه نقود دائما، وكان يستطيع حتى أن يشتري السجائر الغالية. لكنه لم يكن يدخن. لم يكن يدخن من حيث المبدأ.

في ذلك اليوم تزوّد مقدما بالسجائر، زحف مقتربا من غرفة المعلمين وبدأ بالتدخين. كان يدخن جديا، حيث كان يأخذ نفسا عميقا. اقترب المعلمون من باب الغرفة، كانوا ينظرون إلى الوقح، لكنهم لم يتخذوا أي إجراء. دخان السجائر ملأ الممر وقد تسرب إلى غرفة المعلمين. أخيرا انتظروا حتى حضر مدير المدرسة.

كان مديرنا طيبا .

جلس القرفصاء أمام ساشا .

- أطفئ السيجارة.

ساشا أطفأ «عقب» السيجارة .

- وأخيرا . لقد فكرت، إنني سأضطر إلى تدخين كل السجائر.

- ماذا تدخن؟

- «كوسموس». شيء قذر، طبعا، لكن مع ذلك بالفلتر.

- لماذا دخنت بالقرب من غرفة المعلمين؟

- كنت أنتظركم.

- لماذا؟ لكنك تعلم أن التدخين مضر. حتى السجائر بالفلتر.

- أنا لا أدخن. هل أنا مجنون حتى أسمم نفسي، ودفع النقود أيضا من أجل هذا؟

اتهموني ببساطة بأنني أدخن. بالنسبة إليّ على حد سواء، لكن الحاضنة متأكدة أنني أخدعها . إذا قررت التدخين فسأدخن علنا . صحتي أمر خاص بي. لكن لن أسمح لها بأن تشتبه في

أنني أخدعهــا. إذا أرادت، إلى هذا الحد، أن أدخن، فســأدخن مباشرة أمامها.

- أي أنهم أهانوك بعدم الثقة، وأنت قررت الاحتجاج مباشرة هنا؟
- نعم.
- حسنا، سأتحدث معها. هل بقيت معك سجائر بعد؟
- علبتان ونصف.
- هل ستعطيني إياها؟
- على العموم هذه سجائر غالية.

المدير يبتسم، يدس يده في جيبه من أجل النقود. يأخذ السجائر، يعطي ساشا النقود ويدخل إلى غرفة المعلمين.

في دار الأطفال هذه كان المدير طيبا للغاية.

* * *

كان يعمل عندنا معلمون طيبون جدا. أناس ولعون بمهنتهم. طبعا، الوضع بالنســبة إلى المعلمين كان أسهل بكثير مقارنة بالحاضنات. لم يكن عليهم الاعتناء بنا. رأي المعلم مقارنة برأي الحاضنة لم يكن يعني لي شيئا. لكن على حد سواء، بقي المعلمون أناسا كبارا، يحتاج إليهم المجتمع، أمّا أنا فبقيت قطعة لحم غير مفيدة. ساشــا لم يكن يظن هكذا.

ذات مرة جاءت إليهم في الصف معلمة اللغة الروسية الجديدة. كان يجري بسرعة اســتبعاد الناس الذين تصادف وجودهم عرضا أثناء العمل معنا، لم يكن يساعدهم في شيء، حتى الزيادة الجوهرية على الراتب «للضرر». أمّا هذه فجاءت «بديلة»، أي كانت تحل محل المعلمة المريضة مؤقتا.

إملاء. كل التلاميذ جالسون أمام مكاتبهم المدرسية. ساشا راقد على الأرض. مستندا إلى يده المريضة، وباليد السليمة يكتب باجتهاد حروفا كبيرة غير جميلة. جسمه يتقلب من التشنجات، لكنه يجتهد بأمانة.

- عذرا، ألا تستطيعون أن تملوا أبطأ؟

- أنا أملي بالسرعة التي يقضي بها برنامج الصف السادس للمدرسة الثانوية.

ساشا يبتسم.

- أتدركون أنه لو كانت عندي أيضا يدان مثل تلميذ الصف السادس للمدرسة الثانوية، لم أكن لأقلقكم.

- في هذه الحالة كان ينبغي عليك الدراسة في المدرسة المساندة.

ساشا لا يستاء. يضع القلم جانبا ويدس يده في الحقيبة لأخذ الكتاب.

- ماذا تنوي أن تفعل؟

- القراءة. أنا لا ألحق في الكتابة، أمّا منع الآخرين من عمل الواجب فإنه ممنوع.

- توقف في الحال.

- هل ستملون أبطأ؟

بدأ صبرها ينفد. هذا الولد ببساطة جلف. كان بإمكانه ببساطة أن يطلب مرة أخرى، في حالته لا مجال للاختيار. يجب أن يُعاقب. هي تكتب طويلا بعض الشيء في سجل الصف.

- سأستدعي والديك.

- من لينينغراد؟ أمي لن تسافر. ستتصل بمدير دار الأطفال عند الحاجة القصوى.

- حسنا. إذن لن أسمح لك بالإعداد الذاتي، وغدا ستحصل على درجات سيئة في كل المواد.

في هذا اليوم كان من نصيبها النوبة المسائية.

المعلمة تذهب في أثر الحاضنات. ثلاث خالات قويات يُجلسن ساشا في كرسي المعوقين ويحاولن نقله إلى مبنى النوم.

- لماذا لا تحملينني بنفسك؟ تخافين أن تهدمي صحتك؟

وقد وجه كلامه إلى الحاضنات:

- حسنا، يا صبايا، أنتن ناس مأمورون، فلنذهب.

يقبض على عجلة العربة بيده السليمة. التشنجات تقوّس جسمه، يتألم جدا، لكن من المستحيل عمليا فك يده عن أسلاك العربة. الحاضنات مضطرات إلى جر العربة بعجلتها المثبتة بإحكام. يشتمن المعلمة بصوت عال. لكنهن يجررن العربة. ويشتمن ساشا بوداعة.

أمّا ساشا فيغني. يغني عن السفينة الروسية التي لم تستسلم أمام قوات العدو المتفوقة.

الورنكي(*) الأبّي الخاص بنا لا يستسلم للعدو.

لا أحد يتمنى الرحمة.

يجلبونه إلى مبنى النوم، ينزلونه إلى الأرض. المعلمة سعيدة.

في اليوم التالي، الدرجات السيئة مضمونة لساشا.

أكل الأطفال مساء وموظفو دار الأطفال يجلسون للعشاء، ساشا يزحف إلى الفناء ومن ثم إلى المدرسة.

(*) (نسبة إلى قبيلة إسكندنافية قديمة) سفينة حربية روسية غرقت في عام ١٩٠٤ في حرب روسيا مع اليابان

في مساء شتاء مثلج.

ليست المسافة بعيدة عن المدرسة - ثلاثمائة متر. بيده السليمة يجرف الثلج بحذر من تحته ينقل يده المريضة. وأسوأ شيء أن الثلج تكدس قليلا جدا، ويده المريضة تنزلق كل الوقت على الأسفلت المغطى بالجليد، ليس بالإمكان الزحف بسرعة.

يرتدي ملابسه مثلنا، الذين يلزمون الفراش. يرتدي تريكو صوفيا وقميصا. القميص مفتوح الأزرار. وهو مفتوح الأزرار ليس لأجل التبجح، القميص ينحدر ببساطة كل الوقت زحفا على كتف واحدة، وتسقط الأزرار.

يزحف إلى داخل مبنى المدرسة، ومن ثم إلى صفه ويقرأ دروس الغد.

الحاضنات يكتشفن ضياع الطفل، يذهبن في أثره، ينادين المعلمة.

- اذهبي بنفسك وابحثي في شأنه .

تدخل إلى الصف، تنظر إلى ساشا.

- ماذا تفعل هنا؟

- أنجز حقي الدستوري، أحضّر الدروس.

- لكن لماذا زحفت على الثلج؟

- لم يكن عندي مخرج آخر. كان يجب علي أن أبرهن لكم، أنه من المستحيل الانتصار عليّ بالقوة الفظة. وأوصوا أيضا فيما يتعلق بوسيلة النقل، لن أرجع زحفا.

المعلمة تعدو من الصف. يخبروننا فيما بعد أن نوبة هستيرية

أصابتها، بكت طويلا، لكننا لا نصدق. لا نصدق أن المعلمين قادرون على البكاء بسبب هذا الشيء التافه.

* * *

أصل لزيارة ساشا بعد بضع سنوات.

- أمي، أحضري الشراب، سنشرب أنا ورُوبين قليلا .

- لكنك لم تكن تشرب حتى في عيد رأس السنة الجديدة.

- عيـد رأس السـنة الجديدة يكون كل عام، أمّـا رُوبين فلم أره لستة أعوام.

نحن نشرب، نتحدث، وأسأله السؤال الأهم :

- ساشا، هل أنت سعيد، إن كانت في حياتك دار الأطفال؟

- كلا. بعد دار الأطفال أصبحت شـخصا آخر. من الأفضل لو لم تكن موجودة.

- لكن كان عندك أصدقاء في دار الأطفال، أنت تعرفت علي.

ساشا يفكر.

- اعذرني يا رُوبين. أنت شاب طيب، وأنا سعيد لأنك صديقي ولأني تعرفت عليك. لكن من الأحسن لو لم تكن دار الأطفال موجودة.

نيويورك

مرة أخرى يعطينا مشـرف الصف دروسا في السياسة. يحكون لنـا عن أهوال نمط الحياة الغربيـة. لقد تعوّدنا ولا نتعجب من أي شيء. أنا واثق تماما بأن أغلبية الناس في أمريكا تعيش في الشوارع في علب كرتونية، إن كل الأمريكان بلا استثناء يبنون المخابئ، إن في بلادهم أزمة دورية.

فـي هذه المـرة يحدثوننا عن نيويورك. يستشـهدون بمقالة من «نيويـورك تايمز» عن التوزيع المجاني للجـبن للعاطلين عن العمل. وزعت عدة أطنان من الجبن، لكل شخص مائة غرام. تشير المعلمة خاصـة إلى أن هؤلاء المسـاكين لن يحصلوا على أي شـيء خلال الشهر التالي.

أسألها، ألن يموتوا حينئذ كلهم من الجوع؟

– طبعا سيموتون – تجيب المعلمة – لكن سيأتي بدلا منهم حشود من العمال المفصولين.

أصدقها.

* * *

نحن وحدنا في الصف – أنا ومعلم التاريخ. هو يكتب شيئا ما في سجل الصف، وأنا أقرأ. ثم يجلس أمام طاولة المعلمين، وأنا مستلقٍ على الأرض ليس بعيدا عنه.

– هل أنتم مشغولون جدا؟

– ماذا أردت؟

يرفع رأسه عن ما هو مشغول به. المعلم له عينان توحيان بالطيبة والذكاء، يكاد الشيب يغزو شعره. على أعلى سترته شارة.

- أسأل سؤالا.

- اسأل.

- كانوا يحكون لنا في درس المعلومات السياسية، أن الناس في البلاد الرأسمالية يعيشون في فقر مدقع على حافة الموت جوعا. أنا هنا حسبت قليلا، كل شيء يتطابق مع حساباتي. في أمريكا أشخاص يمتلكون مليارات، لكن عددهم قليل جدا. أليس كذلك؟

- نعم.

- ثمة أشخاص يمتلكون الملايين أيضا، عددهم قليل، لكنهم مع ذلك أكثر بكثير من أصحاب المليارات. الناس ذوو الدخل المتوسط - أصحاب الدكاكين، والحلاقون - من المحتمل أن عددهم أكثر بكثير من أصحاب الملايين. عدد العمال أكثر بكثير من أصحاب الدكاكين، أما عدد العاطلين عن العمل - فهو أكثر بكثير من العمال. أليس كذلك؟

- نعم. لا شيء غريبا في ذلك. الناس يعيشون هناك بصورة سيئة للغاية.

- هل أنتم موافقون على ذلك؟ إذن ينتج، أنه استنادا إلى الحسابات التقريبية يوميا في شوارع نيويورك، على سبيل المثال، يموت بضع مئات الآلاف من العاطلين عن العمل، لاشيء لديهم للأكل. وهذا عدا العمال الذين يموتون جوعا. نيويورك ببساطة غارقة بالجثث! ينبغي على أي فرد طوال الوقت رفعها. أنا لا أفهم هؤلاء الأمريكان. المشي في الشوارع بين الموتى والذين يموتون من الجوع. لماذا لم يُسقطوا ملاكهم وأصحاب الرأسمال إلى الآن؟

ينهــض المعلم من أمام الطاولة، يقتــرب مني، يجلس القرفصاء أمامــي. ينظر إليّ بشــيء من الغرابة ويبتســم. يــكاد يضحك من مسألتي الجادة. ربما بكل بساطة مزاجه اليوم طيب جدا.

- كم عمرك؟

- أنتم تعرفون، عشرة أعوام.

- أعــرف، أعــرف - يقول بفــرح تماما - أليس مــن المبكر لك التفكير في مثل هذه الأشياء؟

أنا أسكت.

- لا تغضب. هذا ببساطة صعب عليك للغاية.

ينهــض المعلم، يأخذ من على الطاولة ســجل الصف ويتجه إلى الخـــارج. أمام الباب يلتفت، ينظر بجدية وبصرامة، كأنه رآني لأول مرة.

- لا تتحدث مع أي أحد، أتسمعني، (في هذا الموضوع). أنت ولد كبير، ينبغي عليك أن تفهم.

فــي اليوم التالــي يقترب مني، ينحني، يضع علــى الأرض كتابا سميكا جميلا.

- اقرأه. هذه رواية تاريخية جدية. اعلم أنها ستعجبك.

الكستليتة (*)

دائما ما كنت أطيع الكبار. في نهاية كل عام دراسي كانوا يسلمونني في احتفال شـهادة فخرية «للتفوق في الدراسة وللسلوك المثالي». كنت فعلا أدرس بامتياز. أمّا مصطلح «السلوك المثالي» فكان يعني، أننـي لم أتجادل أبدا مـع المعلمين. كان من السـهل الاختلاط مع المعلمين - كانوا دائما يهذرون. كانوا يحدثوننا لسـاعات عن أشياء غيـر ضرورية وغير مفيدة بالمـرة. كانوا يطلبون منا إعادة الحديث عن هذا كله في الدروس.

كانت ذاكرتي جيدة، كنت أسـتطيع إعادة سـرد الدرس الواحد بكل سهولة. كان المعلمون يعتقدون، أنني أجتهد للغاية. أناس غريبو الأطوار.

كانت الدراسة تعجبني في المدرسة، كان كل شيء هناك كالمزاح. كانوا يعطوننا كتبا فيها صور جميلة، وكراسات فيها خطوط مستقيمة ومربعات. كانت هذه لعبة المدرسة. كنت ألعب بها بسرور.

على الرغم من ذلك كان يجب إطاعة كل الكبار. أصعب شيء كان طاعـة الحاضنات. لم يكن يهمهن ذلـك، المكتوب في الكتب الذكية مع الصور الجميلة. لم يغير شـيئا من الأمر شعر پوشكين المحفوظ عن ظهر قلب أو معادلة رياضية. كن يطلبن مني شيئا واحدا - أقل ما يمكن طلب المساعدة. تقريبا منذ سن الخامسة كن يقلن لي إنني ثقيـل، لأنني آكل كثيرا. «دائما يـأكل ويأكل، وعلينا أن نحمله. فقد

(*) شريحة لحم تشوى مع ضلعها عادة.

ضميره تماما. أنجب الزنوج كثيرا من الأولاد، الآن احمليه مدى الحياة. وما يضيرنا نحن نساء روسيات، حمقاوات، طيبات، وها نحن نتحملهم، نعتني بهم. أمّا آباؤهم وأمهاتهم فهم أذكياء، غادروا إلى أفريقيا». وهكذا من يوم إلى يوم، بلا نهاية.

كنت أسمع عن طيبتهن وشفقتهن وعن والديّ أسودي الجلد. مضحك قليلا، لكنني كنت مضطرا إلى سماع هذا النص في كل مؤسسات الاتحاد السوفييتي، في دور الأطفال، في المستشفيات، في دار كبار السن. كأنهم قرأوه من قصاصات الغش الغامضة غير المرئية، مثل الدرس المدرسي، والتعويذة.

اجتهدت كيفما استطعت. لكن كل ما استطعت عمله، هو الأكل والشرب بأقل كمية. كيف أعيش من دون طعام تماما؟ لم أكن أعرف. لا أحد تسأله. لم يكن سؤال المعلمين له معنى، فقد كان المعلمون غير حقيقيين، لم يكن عليهم إخراج «القصريات» من بعدنا. علمت من الحاضنات أن عمل المعلمين أسهل بكثير، أمّا الراتب - فهو أعلى. من وجهة نظر الحاضنات، كانوا يدفعون للمعلمين مقابل لا شيء. كنت أتفق مع الحاضنات كليا في هذا. قص القصص من الكتب الجميلة شيء سهل، إخراج «القصريات» شيء صعب. كنت أفهم هذا جيدا.

ومع ذلك كانت هناك أحيانا فائدة ما أيضا من المعلمين. المعلمات الطيبات كن يحضرن لي من بيوتهن كتبا ومجلات. في إحدى المجلات النسائية قرأت عن الحمية. كان يجب استثناء المأكولات اللحمية والطحينية من المؤونة (الحصة الغذائية اليومية) حتى لا أسمن. توقفت عن أكل الخبز والمعكرونة. لم يكونوا يدللوننا كثيرا

بالمأكولات اللحمية، لكنهم أحيانا كانوا يعطوننا الكستليتة. كان من الصعب رفض الكستليتات، لكنني استطعت. ساعدني كتاب ذكي عن الجواسيس. هذا الكتاب كان يحكي عن الرجل الحقيقي الذي يجب أن يجرب قوة الإرادة كل يوم، وهذا ما فعلته.

في البداية كنت أريد أن آكل كثيرا، لكن بعد ذلك تعوّدت. عندما كانوا يحضرون لنا الأكل، كنت تلقائيا أختار ما الذي يمكن أكله، وكنت آكل، إن استطعت. أغلب الأحيان كان عليّ الاكتفاء بعصير الكوكتيل وملعقتين من العصيدة. تحسّن مزاجي. كنت أفعل كل شيء بصورة صحيحة، لكني كنت أرغب في النوم دائما، أما في المدرسة فكنت أكف عن الإدراك مع بداية الدرس الثالث، رأسي كان يدور. فقدت الوعي بضع مرات أثناء الدروس.

في ذلك اليوم آلمني بطني، ولم أستطع الوصول زحفا إلى المرحاض. حملتني الحاضنة إلى المرحاض، وضعتني على الأرض وبدأت في تربيتي. كانت تصرخ عليّ، وتقول: يا لك من سيئ، كانت تردد عن «المومس ذات البشرة السوداء» وعن، كيف أنهن كلهن يهتممن بي، يا لي من ناكر للجميل. لقد سكت، ولم أعلق على كلامها حيث كان بلا فائدة قول أي شيء. تكررت مثل هذه الحادثة أكثر من مرة. كان البكاء وطلب التسامح بلا معنى، كل الكلمات كانت تتحطم على الحجة الوحيدة - بنطلوني المتسخ. كانت تصرخ أقوى فأقوى، انحنت عليّ، هزّت بخديها المتدليين، ورشت لعابها. كنت ملتزما الصمت. ماذا كان في استطاعتي أن أقول؟ كانت فعلا مُحقة. كنت سمينا للغاية وكنت أفكر في الأكل فقط كل الوقت. عند بلوغي الحادية عشرة من عمري كان وزني قد بلغ سبعة عشر كيلو

غراما تقريبا. لم أســتطع تبرير ذلك. وقد كنت أبغض نفسي لهذا الضعف. أكلت كستليتة قبل يومين. لم أكن أرغب في أكلها، فعلا لم أكن أرغب. اعتقدت أنني سأشــمها فقط، بعد ذلك قضمت قطعة. وهكذا لم ألحظ كيف أكلتها كلها.

لقد كنت صامتــا حين ضغطت على رأســي بأصابعها الدهنية وبدأت في دفعي في البنطلون المتسخ.

– ساكت، ساكت. قل كلمة على الأقل. اعتذر، عد بأنك لن تفعل هذا مجددا. قل شيئا ما على الأقل.

كانت تدفع بأنفي في القذارة وتردد بصوت خافت: «انطق، انطق، انطق». ماذا كنت أســتطيع القول؟ كنت متيقنا أن كل المطلوب مني هــو ليس أي كلمة – لقد جربــت كل الكلمات. الحاضنة تريد فعلا شيئا واحدا فقط هو أن أتعلم بنفسي الذهاب إلى المرحاض.

لم أستطع أن أعد بذلك، لهذا السبب سكت.

– انطــق، انطــق، انطق. ســتنطق، هل ســتنطق؟ – كانت تردد عليّ صوتا واحد «انطــق، انطق». كما في الفيلم الذي عن الحرب، وفيه كان الضابط الألماني يســتجوب ضابط الاستخبارات الروسي الجسور. كان ألماني الأصل.

تفلت مني فجأة جملة ألمانية بسيطة: «رُوسيش شڤاين(*)».

– «دوُ بيســت رُوسيش شڤاين»(**)، – أصرخ في وقاحة متهورة – «دوُ بيست رُوسيش شڤاين». «رُوسيش شڤاين». «رُوسيش شڤاين». «رُوسيش شڤاين».

(*) الروسي خنزير باللغة الألمانية.

(**) أنت خنزير روسي باللغة الألمانية .

من الصواب أن الألمـــان أعدموا والديك رميا بالرصاص. ويجب أن يعدموك أنت أيضا رميا بالرصاص.

هذه كلمات، مجرد كلمات. لكنها تؤثر.

تُذهل المرأة.

عندمـــا كانت طفلة عانت من الاحتلال الألماني، والجوع في فترة ما بعد الحرب. أنا أعلم أنني أضرب في المكان المؤلم.

تعـــودت على إعاقتي. لكن أحيانا لدقيقـــة تظـهر مني رغـبة لا تقهر للوقوف على رجلـــي. هذه الرغبة، كقاعدة، تظهر عفويا، من مكان ما في عمق الســـلوك الحيواني. في تلك اللحظة رغبت بقوة في أخذ ســـكين حاد في اليد اليمنى والضرب بالشـــفرة في بطنها البدين. الضرب والضرب. ثم شـــقها بالكامل، كنت أرغب في الانتقام.

بـــدأت في البكاء. كنت أبكـــي وأصرخ. كنت أصرخ في وجه هذه المرأة الغبية بأشياء غير عادلة وفاضحة. كنت أصرخ بشتائم بذيئة، مجتهدا أن أجرحها بشدة.

مرت بنا المعلمة. دخلت بســـبب الصيحة، رأتني مســـتلقيا عاريا على الأرض الإسمنتية في القذارة والدموع. أدركت المعلمة كل شيء، أثارت ضجة، عندها غسلني الكبار الطيبون، وحملوني إلى الفراش. وحضرت الممرضة ومعها الحقنة.

- اهدأ يا ولد، كل شـــيء ســـيكون على ما يرام. الآن سأحقنك حقنة، سوف تنام.

- **اتركيني يا يا .... أنت روســـية. أنـــا أبغـضك. أنا أبغض كل الروس، فاشـــيون، أوغاد. حقنة؟ أحضري الحقنة هنا، لكن ليست**

هذه، إنما الأخرى الحقيقية، حتى أموت إلى الأبد. بشـــرتي سوداء، وأنتم روس.

إذن اقتلونـــي ولا تعذبوني. أنتم تبخلون عليّ حتى بالســـم. أنتم أســـوأ من الفاشيين. الفاشـــيون كانوا يقتلون كل المعوقين، أما أنتم فتتهكمون عليهم.

يعطيانـــي الحقنة. أصـــرخ وأصرخ. أحكي عن كل شـــيء: عن الحمية، عن أنني ســـمين. أعدهما، بأنني لن آكل شـــيئا أكثر أبدا. المعلمة والممرضة تستمعان إليّ ولا تفهمان. تحاولان تهدئتي.

الحقنـــة أثرت فيّ حتى نمت بســـرعة إلى منتصف اليوم التالي. كنت أشـــعر بخير وطمأنينة. أعطونا على الغداء كستليتة. أقرر أن آكل كل شيء. آكل الكستليتة، ثم شوربة البورتش مع الخبز.

أن أصبح سمينا أو لا أصبح.

الألماني

دخل إلى الصف في مشية سريعة، ومتبخترة إلى حد ما، سحب الكرسي، جلس. لم ينظر إلينا، بدأ بقراءة الشعر بصوت عال وبوضوح. قرأ طويلا. ثم وقف، وعاين الصف.

- هذا غوتة(*). قرأته باللغة الألمانية. ربما، وأنتم ستستطيعون يوما ما قراءة غوتة بلغته الأصلية. أنا معلمكم الجديد للغة الأجنبية - اقترب من الطاولة، فتح الكتاب الدراسي - قبل كل شيء يتعين عليّ الاعتذار لرُوبين. رُوبين، أنا آسف جدا لأنني لا أستطيع تعليمك اللغة الإسبانية. أنا لا أعرف الإسبانية. تعلم الألمانية لمدة ما. إذا تعلمت الألمانية فستستطيع تعلّم أي لغة أخرى، تذكر هذا.

أنا تذكرت.

كان معلما غريب الأطوار للغاية. كان يتلهّي أحيانا في وسط الدرس، وكان يقرأ الشعر طويلا. كان يحدثنا عن ألمانيا بحماس وبنشاط. كان يتلألأ من السعادة، عندما كان فريق كرة القدم الألماني يفوز في مباراة. كان يعتبر كل شيء ألماني هو الأفضل.

معلم حقيقي، معتوه، متعصب.

* * *

أثناء درس اللغة الألمانية. نشط الصف، ونحن نتناقش مع المعلم. موضوع النقاش ثابت: تفوق ألمانيا. ممكن التناقش في أي شيء ما عدا هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية. إذا ذكرت الحرب، يصمت المعلم، يبدأ في مسح النظارة بعجلة، يقترح بصوت جاف

(*) يوهان فولفانغ فون غوتة (١٧٤٩ - ١٨٣٢) أشهر أديب وشاعر ألماني.

لا لــون له فتح الكتب الدراســية على الصفحة المحــددة، والترديد بصوت مسموع الأفعال الألمانية اللانهائية.

العينان تتلألآن، الخدان احمرّا. يلقي كالمنتصر في الصف أسماء عائلات المؤلفين الموسـيقيين الألمان، والفلاسفة، والشعراء. يصرخ تقريبا عن تفوق صناع السـفن الألمان. هو سـعيد وراضٍ. لا شيء نعترض عليه. ننتقل لمناقشة الزراعة.

نحن بإعجاب نسمع عن السنتنارات(*) والهكتارات، حجم الإنتاج والمحاصيل التي لا نظير لها.

سؤال أحدهم يفسد كل شيء :

- والبلح؟

- أي بلح؟

- هل يزرعون أشجار البلح في ألمانيا؟

تضايــق، تكدر مزاجه. نقرأ بصوت مســموع الأفعــال الألمانية اللانهائية.

* * *

اقترب مني، جلس القرفصاء. في يده كيس ورقي فيه بلح.

- هل تريد؟

- شكرا .

نحن نــأكل صامتين. انتهينا من الأكل. نهــض متثاقلا من على الأرض، نفض البنطلون، أخذ نفسا.

- أمّا في ألمانيا فلا ينمو البلح. هذه حقيقة. لا ينمو بالمرة.

(*) السنتنار (مائة كيلو جرام).

الموسيقى

الموسيقى لم تكن موسيقانا، غريبة. كانوا يسجلونها على أشرطة الرونتجين[*]. نزلاء دار الأطفال كانوا يجلبون أشرطة رونتجين فارغة من رحلاتهم اللانهائية إلى المستشفيات، ثم كانوا يبدلونها بأشرطة مسجلة بنسبة واحد إلى اثنين. كنوع من التجارة. الأغاني الغربية الشائعة التي لا ضرر منها، كانت توحي بالرعب للمربين.

- هل تعرفون، عن ماذا يغنون؟

لم نكن نعلم. كانوا يأخذون الأسطوانات، كانت تجري مناقشة سلوك المخالفين في المجلس التربوي للمدرسة، النضال ضد التأثير الرأسمالي كان يسير على قدم وساق. ونضال لا معنى له.

الأولاد بدأوا يربون الشعر الطويل. أرسلوا من موسكو تعليمات لمكافحة «العدوى». شعر المتربين في دار الأطفال لم يكن ينبغي أن يتهدل أدنى من منتصف الأذنين، ويقيسون الأذنين بالمسطرة، كانوا يحددون منتصف الأذنين بالنظر. كان النضال اللانهائي من أجل الحق يمضي في اقتناء تسريحة أكثر أناقة بالكاد من تسريحة الرفيق.

لا تهمني المناقشات بسبب طول الشعر. يقصون شعري دائما إلى درجة الصفر، لأنني لست من القادرين على المشي.

أريد أن أعرف بشدة، عن ماذا يغني الناس في الأسطوانات. أريد أن أتعلم لغتهم.

(*) الأشعة السينية (أشعة إكس).

الرسالة

هــذه كانت دار أطفال ســيئة، ســيئة جدا. طعام ســيئ، الكبار ســيئون. كل شيء سيئ. دور الأطفال، كما السجون، تكون مختلفة. هذه الدار كانت ســيئة بالأخص. أصعب شيء كان تحمل البرد، دار الأطفال لم تكن تُدفأ.

كان الوضــع صعبــا خاصة في الشــتاء. كان الحبر يتجمد في الأقــلام. برد في الصفوف، برد في غــرف النوم، برد في كل مكان كنت أزحــف داخلا فيه. في دور الأطفال الأخــرى كان الممر باردا فقــط أما في هــذه الدار فالبرودة في كل مــكان، في دور الأطفال الأخــرى كان من الممكــن الاقتراب زحفا من المدفــأة، أما في هذه الدار فأجهزة التدفئة كانــت قطعا من المعدن البارد عديم الفائدة، دار أطفال سيئة للغاية.

أحضروا شخصا جديدا. مصابا بالشلل الدماغي. فتى قوي وضخم جدا، كان يتخبط من التشنجات. مثل هذه التشنجات القوية المستمرة تحــدث نادرا. أخــذوه من يديه وأوصــلوه إلى غرفة النوم، ثم أجلســوه على السرير.

وجهه مشوه، ونطــقه غير واضح تقريبا. كنت أدرك كل شــيء. لم يكن ذكيا جدا، ولا مأفونا بالكامــل، كما كان يعتــبره الكل تقريبا من المربين إلى الأتراب. كان يجلــس على الســرير، ويــردد صوتا غريبا كل الوقت مثل التعويذة، كصياح الطــيور تقــريبا: «كلســك(*)»، «كلسك». حيث لم

(*) لا يستطيع أن ينطق كلمة عربية بأحرفها كاملة وتنطق بالروسية «كولياسكا» فكان ينطقها «كلسك».

تكن في اللغة الروسية كلمات تتكون من حروف ساكنة فقط. كنت أعلم هــذا وكنت أقرأ الحروف الصوتية من الشــفايف، بالأحرى من حركة عضــلات الوجه. الولد لم يكــن مجنونا. كان يردد ليــلا ونهارا كلمة بســيطة: «عربة». كان من الصعب أيضا تسميته طبيعيا. لم يفهم شيئا بعد. لم يكن هناك شيء للأكل في دار الأطفال هذه، أي عربات؟

نزلاء دار الأطفال كانوا يملكون الحق في مراسلة الوالدين. كانت الحاضنة كل أســبوع تقنع الأطفال بإصرار لكتابة الرســائل، فقد كانوا كل أســبوع يرفضون بعناد الكتابــة إلى البيت. أطفال أغبياء. كانوا يعطونهم ظرفا مجانيا، وورقة نظيفة.

الكل تقريبا في صفوف الأطفال الصغار كان يكتب الرسائل. كانوا يعيــدون الأوراق التي فيها كتابــات الأطفال إلى الحاضنة، فقد كانت تصحــح الأخطاء النحوية، وتضع الرســالة في الظــرف وتبعثها إلى البيــت. الكل كان يعرف ما الذي يجب بالضبط كتابته في الرســائل، الكتابــة عن العلامات المدرســية، وعــن الكبار كثيــري العناية، وعن الصف الذي يســوده الوفــاق والوئام. كانوا يعطــون الأطفال في كل عيد بطاقات بريدية جميلة، مماثلة للكل، لتهنئة الوالدين. البطاقات كانت تعجب الكبار بالأخص. كل بطاقة كان يجب تخطيطها بالمسطرة وقلم الرصاص، ثم كتابة مســودة نص التهنئة. كانت الحاضنة تصحح الأخطاء في المســودة. الآن من الممكــن إعادة كتابة النص على بطاقة البريــد بقلم الرصاص، وبعد ذلــك، إذا كانت الكتابة من دون أخطاء، فإنــه يحوّط المكتوب بقلم رصاص بأحبار ملونة. الكل كان يعلم كذلك عن ما لا تجــوز كتابته في بطاقات البريــد، كان ممنوعا الكتابة عن الشــيء السيئ، على ســبيل المثال كان من الممنوع الكتابة عن الطعام.

بالأخص عن الطعام. لكن الوالدين الغبيين لسبب ما كانا في رسائلهما يسألان دائما عن الطعام.

لهذا السـبب كثيرا ما كانت كل الرسـائل تبدأ نمطيا: «مرحبا، أماه! يطعموننا بشـكل جيد». كانوا يمدحون الأطفال على الرسائل الجيدة، وكانوا يشـتمونهم على الرسـائل السـيئة. كانـوا يقرأون بالأخص الرسائل السيئة بصوت مسموع لكل الصف.

تلاميذ الصفـوف العليا لم يكونوا يكتبون الرسـائل. فالوالدان يعلمان مسبقا ما هي دار الأطفال. لماذا كان إرغامهم على القلق لمرة إضافية؟ وإذا احتاج أحد ما لكتابة رسـالة، فإنه من الممكن شـراء الظرف دائما، لو كانت هناك نقود. كان بمقدور الأطفال فقط غير الأذكياء بالمرة إعادة الرسالة إلى المربية.

الكل كان يعرف أنه حسـب التعليمات يجـب على المربية أن تحمل الرسالة إلى البيت، قراءتها ومن ثم فقط تقرر إرسال الرسالة أم لا.

أي شخص كبير كان يستطيع وضع الرسالة في صندوق البريد. في أغلـب الأحيان كانـوا يطلبون مـن الحاضنات هـذه الخدمة البسيطة، أمّا أحد الأولاد فتكيّف مع بعث الرسائل بواسطة سائقي سـيارات نقل الخبـز. كل يوم كانوا يجلبون الخبـز إلى منطقة دار الأطفال. كان يقترب من السـائق، ويقول له همسا: «ضعوا الرسالة فـي صندوق البريد، من فضلكم». السـائق كان يتلفت حوله، يأخذ الرسالة في صمت ويجلس في السيارة.

رسـالة هذا الولد كانت تُبعث في اليوم نفسـه، علم والداه ذلك مـن ختم البريد. كان يقنعنا الولد بفخر، أن كل السـائقين - أناس طيبون. أبوه كان سائقا.

لعـل المربية صدّقت فعلا أن تلاميذ الصفـوف العليا لم يكتبوا رسـائل لسـبب ما، لكنها كانت بإصرار تقنع الكل مرة في الأسبوع لكتابة الرسائل. إنها كانت تتكلم، ولكن الكل كان صامتا.

لقد كان هذا هو المتبع.

إذا أزعجـت المربيـة أحدا ما، كان الولد يضطـر إلى التظاهر بأنه قرر كتابة رسـالة. كان يكتب بسـرعة علـى الورقة «أنا أفرح من عصيدة الشـعير الفاخر»، كان يضع الورقة في الظرف ويلصق الظـرف بالصمغ المخصـص لتجميع نماذج الطائـرات. ولم تصل واحدة من هذه الرسائل إلى المرسل إليه، ولم يكن هذا لازما. حيث أنهم لم يعودوا يضايقونه مرة ثانية.

الولد كان يجلس كل الوقت على سـريره، كان يصرخ ويبكي. في البداية، كانت علاقة الحاضنات به ليسـت سـيئة، في الصباح كن يرفعنه من على السـرير إلى الأرض، كن يسـألنه عن كيفية وضعه على الأرض حتى يكون باسـتطاعته الزحف. المعوق كان مسـتلقيا على ظهره، كان يحرّك رجليه ويديه في الهواء، كان يغمغم بشيء ما غامض. عندما قلبنه على بطنه بدأ يصرخ بشـدة أكثر. الحاضنات أجلسنه مرة أخرى على السرير وذهبن. وماذا كان بوسعهن عمله؟

كان يصـرخ، يغمـغـم ويبـكي ليلا ونهـارا. أراد زملاؤه في الصف ضربه في البداية حتى يسـكت، لكن لم يفعلوا. لم يكونوا يضربون المأفونين.

طلبوا ببسـاطة من الإدارة نقله إلى عنبر آخر. لا أحد كان يريد النوم علـى صراخه الليلي. ريثما كان الكبار يقررون أين يُسـكِنون البائس، كان الفتيان يحاولون تسـلية الأحمـق. كانوا يحضرون له

كرات منفوخة بالهواء، ألعاب أطفال - لا شيء كان يجدى نفعا. لم يستسلم الفتيان. كان لا بد أن يعجبه شيء ما إذن. شخص ما عرض عليه كراسة مربعات سميكة. فرح الأحمق، أخذ يومئ برأسه. تشبث بالكراسة، هدأ وفجأة قال بوضوح: «أعطني».

التوفيق غير المتوقع أفرح الكل.

طلبوا منه مرة ومرة أن يقول «أعطني». كان يردد ويبتسم. كانت تخرج منه كلمة «أعطني» بشكل جيد. كان يستطيع أن يقول بلا تعثر تقريبا كلمات «ماما»، «بابا»، «أعطني»، «نعم» و«كلا». كان ينطق كلمة «كلا» بصعوبة، في البداية حرف الكاف غير مسموع تقريبا، بعد ذلك توقف و«ل - ا» طويلة وممدودة. لكن هذا كان كافيا. طلب قلما، فأعطوه قلما، ومن غير أن يسألوه، جاءوا بطاولة وقربوها من سريره. وضعوا القلم على الطاولة. توقف متسمرا للحظة، فجأة بلباقة أمسك القلم بيده اليمنى، استلقى بثقة على الطاولة بكامل جسمه، وكان يمسك الكراسة تحت جسمه، فتح الكراسة بذقنه وغرز القلم في الورقة النظيفة. جلس، يداه كانتا ترتعشان بلا معنى، رجلاه تحت الطاولة كانتا تنقران قرعا لا إيقاعيا. كان يضحك، وكان الفتيان يضحكون معه.

حياة الولد الجديد تغيرت. كان ينام ملء جفنيه في الليالي، وفي الصباح كانت الحاضنات يحشرن في يده القلم، يضعن أمامه الكراسة. كان يجلس على السرير كل النهار، تارة كان يسقط على الدفتر بكامل جسمه، محاولا مرة ومرة غرز قلم الحبر في الورقة النظيفة، وتارة أخرى يعتدل وهو يضحك بسرور، ممتعا نظره برسوماته. نام الفتيان في العنبر لمدة أسبوعين في هدوء. كان

الأحمق لمدة أسبوعين يرسم بصبر في الكراسة منحنيات غريبة، زخارف مشكلة، أشكالا وعلامات مرئية من قبله هو فقط.

بدأ بالصراخ عندما لم يتبق مكان نظيف في الكراسة. بدأ بالصراخ من جديد. كانت الكراسات تقدّر في دار الأطفال لا سيما كراسات المربعات. لكن الأحمق كان يريد أن يرسم، وكان الفتيان يريدون النوم في الليالي. فاشتروا له كراسة جديدة، ودعوه يرسم. لم ينظر حتى إلى الكراسة النظيفة. رمى القلم على الأرض، ووضع الكراسة على السرير بجانبه، اللعبة المدعوكة عديمة الفائدة، وبدأ بالصراخ.

الكل كان يدرك الآن أنه كان يصرخ. كان يصرخ «ماما». كان يصرخ بصوت مرتفع. قد تعوّد الفتيان قليلا على نطقه. الكل كان يحاول التوصل إلى ماذا كان يحتاج أيضا، كانوا يقنعونه بألا يصرخ، يعدونه بأن يحضروا له كراسات كثيرة بعد - لا شيء كان يجدي نفعا. كانوا يقرأون له الكلمات مجموعة تلو الأخرى، وكان يقول «لا». حينئذ بدأوا بقراءة الحروف. كانوا ببساطة يقرأون حروف الهجاء، إذا أعجبه الحرف، كان يقول «نعم». تكونت كلمة «رسالة». كل شيء واضح. كان يريد أن يرسلوا رسوماته إلى أمه. نادوا المربية. المربية طالعت الكراسة طويلا. كانت الأوراق المدعوكة بكثافة مرسومة بعلامات ما. العلامات كانت في مكان واحد كيفما اتفق، في مكان آخر تاهت بكثافة في كتلة لا يمكن تمييزها من الحبكات الحبرية. بعض الصفحات كانت مغطاة بدوائر ممتدة. الدوائر كانت ذات قياسات مختلفة، ليست مقفلة دائما، كان من الممكن بصعوبة كبيرة فقط اعتبارها كحرف «O». لكن من يأخذ برسم حرف «O»، على صفحتين على التوالي؟

رفضت المربية إرسال الكراسة إلى الوالدين. «يجب أن أعرف محتوى هذه الرسالة، فضيحة كانت على وشك الحدوث» المربية تبرر. أي محتوى يمكن العثور عليه في الشخبطات السخيفة؟ ستذهب المربية الصارمة بعد الوردية إلى بيتها، وستنام نوما كافيا بصورة اعتيادية، أمّا الفتيان فسيضطرون إلى عدم النوم من جديد في الليالي بسبب صراخ الأحمق، اضطرت الحاضنة بسرعة إلى البحث عن مخرج من الوضع المزعج. اقتربت من الولد الجديد.

- هذه رسالة؟

- كلا.

- هذه رسوماتك؟

- نعم.

- هل تريد أن أرسلها إلى أمك؟

- نعم.

- ربما، لن نرسل كل الكراسة إلى أمك؟ سنختار الرسومات الأجمل ونرسلها؟

- كلا. كلا.

نطق «كلا» مرتين، الكلمة التي كان من الصعب عليه جدا نطقها.

بعد ذلك بدأ بالصراخ. كان يصرخ «ماما»، كان يضرب الأرض بقدميه ويحاول أن يقول «كلا» مرة أخرى. لم يستطع ذلك.

- حسنا، حسنا. فهمت كل شيء. أمك يعجبها جدا، عندما ترسم.

سأرسل إليها كل رسوماتك. سأكتب رسالة إلى أمك. سأكتب أن المكان هنا أعجبك جدا، وأن لديك أصدقاء كثيرين وأنك تحب الرسم جدا.

المكان عندنا يعجبك، أليس كذلك؟

- نعم.

كان هذا خلاصة الكلام. أرسلت المربية الكراسة إلى والدي الولد الجديد. هدأ الولد الجديد. كان ينام في الليل، يجلس في النهار على سريره محملقا في نقطة واحدة.

بعد شهر جلبوا إلى دار الأطفال عربات للمعوقين. العربات كانت كثيرة، تكفي الكل. أعطوا الولد الجديد عربة أيضا. الحاضنات أمسكنه من تحت يديه، نهض. قرّبنه من العربة، أجلسنه. حاولن أن يضعن رجليه على عتبات العربة، لم يسمح لهن.

أزحن العتبات تماما. اندفع عن الأرض برجليه وانطلق.

أخذ يتدحرج في الممر بعد أن ضرب برجليه القويتين الأرض بسرعة للغاية.

أنّبت الحاضنة الولد الجديد في الاجتماع الدوري للصف. قالت إنه في مثل هذه الحالات فإنها تُعد حماقات عادية. كيف أن بلادنا تتقطع لتوفر لنا آخر قطعة خبز، يا له من ناكر للجميل.

كانت تبرهن على أنها تصرفت مع الولد الجديد كما مع إنسان أرسلت كراسته إلى والديه، أمّا في الكراسة، على ما يبدو، فقد شهّر بكل مجموعة العاملين في دار الأطفال، صوّر الحياة في دار الأطفال باللون الأسود، ندد بالمجلس التربوي وبالموظفين بلا أساس كاف. كانت تتكلم وتتكلم. الولد الجديد لم يكن يستمع إليها. عندما

وصلــت في مثل هــذه الحالات إلى الاتهامات الاعتيادية بالقســوة وغلظة القلب، أزاح برجله المكتب المدرسي وتدحرج في الممر.

لم يســمحوا له أكثر بكتابة الرســائل. وهو لم يطلب ذلك. كان يتزلــق في الممر بعد الدروس، كان يلعب لســاعات بالكرة المنفوخة بالهواء. كان يطلب بانتظام زيادة كمية الغداء.

كان يحتــاج إلــى إطعامه بالملعقة، الحاضنات لــم يردن إطعامه حصــة إضافية. حاولن أن يشــرحن له كل هذا، لكــن بلا جدوى. تدحرج على عربتــه خلف الحاضنة إلــى أن تراجعت. الحاضنات حاولــن الاختباء من إلحاحه فــي غرفتهن. كان يجلس قرب الغرفة ويصرخ. عندما كان يضجرهن كل هذا، كن يخرجن من الغرفة وكن يعطينه طبق شــوربة أو عصيدة. الكل تعود عليــه بالتدريج وكانوا يعطونه دائما حصة مضاعفة حتى يتخلصوا من إلحاح المعاق.

عندمــا كنا نبقى وحدنا، كنــت أتحدث معه. بعــد أن يقول كل كلمة ببطء، كان ينطق جملة، وينظر إليّ باســتفهام وبارتياب. كنت أكــرر كلماته. بدأ يثق بي بالتدريج، ولــم أعد في حاجة إلى ترديد كلماته. كنا نتحدث ببســاطة. سألته ما الذي كان في تلك الرسالة بالتحديد.

- رُوبين، أنا فكرت كثيرا .

- أعلم، إنك فكرت كثيرا وكتبت رسالة جيدة. ماذا كتبت؟

- «ماما، يطعمونني بشكل سيئ ولا يعطونني عربة».

من أول رســالة في حياتــه كانت الصفحة الأولــى كلها مليئة بحروف «م» كبيرة وصغيرة. كان يأمل في أن حرفا واحدا على الأقل من كل الصفحة ســيكون مفهوما. أحيانا كان يستنفد على الحرف

الواحد عدة صفحات. الكراســة الســميكة ذات الســت والتسعين صفحة كانت مليئة كليا بالكتابة.

حاولت أن أناقشه

- أول أربعة حروف - زائدة.

- فكرتُ كثيرا.

- لا يوجد فرق فــأول أربعة حروف زائدة، كان من الممكن أن لا يكفي مكان عندك في الكراسة.

اســتغرق في التفكير. بعد ذلك ابتســم ابتسامة عريضة ببطء، نطق بوضوح للغاية «ما - ما».

الفطائر الصغيرة

دار الأطفال، دار للأطفال. يهيئون الأطفال لحياة المستقبل وحياة الكبار.

يدرســون في دار الأطفال إضافة إلى مواد المعارف العامة أسس البقاء حيا في العالم المعقد، الذي يبدأ فيما وراء بوابة المدرسة.

يعلمون الأولاد فهم نظام الأســلاك الكهربائية، والنشر بمنشار التقطيــع، وتجميــع وتصليح الأثــاث، ويعلمون الصبايــا الخياطة، والحياكة، والتحضير. هذا الشيء ليس بهذه السهولة - تعليم الولد عديم اليدين تبديل المقابس الكهربائية، يبدو من الاســتحالة تقريبا تعليم الصبيّة بيد واحدة الحياكة.

هذا شيء صعب.

فعلا صعب جدا.

مدرســونا نجحوا في عمل الشيء الذي لم يستطع والدا الطفل المعوق حتى تخيله.

أنا راقد على الأرض في الصف. تدخل صبية وفي يديها صينية. بدلا من رجل واحدة عندها طرف اصطناعي، لكن حسب مقاساتنا، مقاسات دار الأطفال، تعتبر ســليمة تقريبا. في الصينية - فطائر صغيرة. وساخنة، ومحمرة.

- أين الأولاد إذن؟ نحن مع الصبايا - هي تقول - خبزنا فطائر صغيرة، وعدونا المجيء إلى المطبخ للتذوق.

- ذهبوا إلى السينما .

- كيف إلى السينما؟

- أخذوهـم اليوم إلى السـينما، غدا - سـيأخذونكن أنتن. لأن عندكن درسا في فن الطهي.

- ولماذا لم يقولوا لنا؟ وما العمل الآن بهذه الفطائر الصغيرة؟

تضـع الصينية على طاولة المعلم، تجلس أمام المكتب المدرسـي، تأخذ من الصينية فطيرة وتعطيني إياها.

أنا آكل الفطيرة الصغيرة بالبطاطس والبصل.

- لذيذة - أنا أقول - فطائركم الصغيرة طيبة.

الصبيّة لا تسمعني. تنظر بتأمل إلى الفراغ الذي أمامها.

- غريب... أين الأولاد إذن؟

العراك

نادرا ما كان هناك عراك في دار الأطفال. عندما كانوا يتعاركون فإنهم كانـــوا يتعاركون بعنف. كانوا يتعاركون حســـب الأصول. كان ممنوعا العض والإمســـاك بالشعر والســـكاكين، والبرُجمية(*) كانت خارج قانـــون دار الأطفال. إذا كانت درجة الإعاقة غير متســـاوية، كان يســـمح بالانتقام. كان لا يسري على الانتقام انقضاء المدة. كنت أعرف شـــابا، كان يحكي بفخـــر، كيف أنه دفع المســـيء إليه تحت السيارة بسبب الإساءة التي ألحقها به قبل عام ونصف العام. دفعه دون أن ينجح في مبتغاه، الســـيارة بدأت بالحركة، والضربة لم تكن قوية. في الاجتماع المسائي برّئ المخالف. الذي دفع الشخص تحت الســـيارة، كانت لديه يد واحدة فقط، ومن تم دفعه كانت لديه يدان ورجل. كل شـــيء بأمانة. العـــراك كان من الممكن أن لا يكون. الولد كان ينتقم، أي أنه ســـلك ســـلوكا صحيحا. عندما خرج المُصاب من المستشـــفى، تصادق الأطفال. كانوا يحترمـــون القوة. كل واحد كان يملك الحق أن يكون قويا.

أنـــا أحب الخريف. في الخريف كان يعـــود المحظوظون إلى دار الأطفال بعد الراحة الصيفية البيتية، أولئك، الذين كانوا يأخذونهم إلى منازلهم في العطلة.

في الخريـــف كانت الضجة والفـــرح، كثير من الطعـــام اللذيذ، قصص ممتعة عن البيت، وعن الصيف، وعن الوالدين.

(*) قطعة معدنية تكسى بها البراجم (مفاصل الأصابع أو العظام الصغار في اليد والرجل) في الملاكمة... إلخ.

أكره الربيع، لم أحب الربيع أبدا. في الربيع كان أحسن الأصدقاء يسـافرون في العطلة. في هذا الربيع كنا نأمل، في أنهم سيأخذون إلـى البيت من لـم يأخذوه في العام الماضي.الـكل كان يأمل، حتى أولئـك الذين كان آباؤهم يعيشـون بعيدا جدا، حتـى الأيتام. كانوا يجتهدون في أن يمضوا الجزء الأكبر من النهار في فناء المدرسـة، على مقربة من بوابة دار الأطفال. لم يكونوا يتكلمون عن هذا، كانوا ببساطة ينتظرون، كانوا ببساطة يأملون. أنا لم أكن آمل، كنت أعلم أنه لن يأتي أحد لأجلي أبدا.

في ذلك الخريف وصل «سـيريوغا» حزينـا. كان من الغريب رؤية سـيريوغا حزينا. طبعا، الـكل كان يحزن قليلا بعد العطلة، الكل كان يشتاق إلى البيت. لكن الحزن كان يزينه لقاء الأصدقاء، انطباعات جديدة، كتب دراسـية جديدة. كنا ننتقل من صف إلى صف، كنا نكبر.

سيريوغا، فتى - حدث أكبر سنا من المحدد من دون رجلين، قدم إلينا في العنبر في عربة النقل الخاصة به، أراد التشاور مع الأولاد. كان يتكلم بشكل أساسي مع «غينكا».

- حددوا لي موعدا للعراك.

- سـيرغي، أنت الأقوى فـي دار الأطفال. الكل يعرف هذا، من يعتزم العراك معك؟

- هنا عقدة المسـألة، إن هذا العراك لن يكون في دار الأطفال، سيكون هناك، حيث الحرية.

- ما سبب العراك؟

- بسبب امرأة. قالوا إنهم سيضايقونني حتى الموت، سيدفنوني.

قبـل يوم واحد من إرسـالي إلى دار الأطفال. قالـوا، إذا أتيت إلى البيت في الربيع - سيقتلونني.

الـكل كان يعـرف أن فتاة كانت تنتظر سـيريوغا حيث الحرية. سـليمة. فتاة جميلة طبيعية. حتى صبايانا لم يحاولن مداعبته. كن يعرفن أن سيريوغا عندما سيكمل المدرسة، سيتزوج من فتاته.

غينكا لم يسأل عن المرأة. هذا لم يكن متبعا. إذا أراد الفتى فإنه سيحكي بنفسه. أما إذا لم يرد فهذا شأنه.

- لا أعـرف، بـماذا أنصـحك. لـم أكـن حيث الحرية أبدا. هل هو قوي؟

- طبعا. أكبر مني بعام، يدرس في مدرسة التأهيل المهني.

- سـتكون نهايتـك إذن. سيقـتلك. سـيضربك برجله ويركلك حتى الموت.

- أعرف ذلك. لكن يجب العراك.

غينكا اسـتغرق في التفكير. في دار الأطفال لم يكن هناك أحد أذكى من غينكا. غينكا نفسـه كان يعرف هذا. هذه دار أطفال. من الصعب جدا إخفاء الحقيقة. الكل كان يعرف كل شـيء عن الكل. كنـا نعرف، مـن هو الأقوى في دار الأطفـال، في أي صف تدرس الصبية الأجمل.

- هل تعلم، يا سـيرغي، أعتقـد، أن لديك فرصة ضئيلة، لكنها فرصة. يجب إسقاطه على الأرض. إذا سقط - انقض عليه لخنقه. لديه رجلان أكثر، هو أقوى. ليس لديك مخرج.

سيريوغا نفسه كان يعرف أنه ليس ثمة مخرج. بدأ من هذا اليوم في «نفـخ العضلات». في ذلك العام كان الـكل «ينفخ العضلات».

وضعوا في فناء المدرسة عارضات، لحم الكهربائي مع معلم التربية البدنيـــة بضعة أجهزة تدريب بدائية من الأنابيب المعدنية. أصبحت جلســات الســمر أقل بكثير. المعلمون كانوا سعداء - الأطفال كانوا يقضون كل وقت الفراغ تقريبا في فناء المدرســة. ســيريوغا، فتى ذو نفــوذ، ترك التدخين - أولئك الذين قرروا نفخ العضلات، تركوا التدخين أيضا. في الحقيقة بعد ذلك، الكثيرون فشــلوا فقد بدأوا بالتدخين. سيريوغا لم يفشل.

كل يوم. ســاعة صباحا، ساعتان مســاء، أربع ساعات في يومي الســبت والأحد. دار الأطفال كانت «تنفخ العضلات» تســعة أشهر مدرسية.

أولئــك، الذين كانت لديهم يد واحــدة، كانوا ينفخون عضلاتهم بيدهم الوحيدة.

فجــأة بــدأوا بحمــل الأطــراف الصناعيــة. صارت الأشــياء البلاستيكية العديمة الفائدة التي تحاكي اليدين ضرورية فعلا. على قدر التدريبات كانوا يسكبون في الطرف الصناعي الرصاص حتى لا ينحني الظهر، لا يلتوي العمود الفقري إلى الجهة الســليمة. عند ذلك كاد الطرف الصناعي نفسه يصبح سلاحا جيدا في العراك.

كان هنــاك فتى بلا يدين يعيش فــي دار الأطفال. كان من دون يدين تماما. أولئك الذين لم يكن لديهم كفّا اليدين، كان باستطاعتهم تقوية جذاميرهــم(*) في الأطراف الاصطناعية مــن أجل العراك. لم يكن يستطيع حمل الأطراف الاصطناعية. أطرافه الاصطناعية، ألعاب عديمة الفائدة، كانت تعوقه فحسب، لذا لم يكن يحملها بالمرة.

(*) ما بقي من العضو بعد القطع.

كان «ينفــخ عضلاتــه» أكثر من الكل، أكثر حتى من ســيريوغا. كان يجلــس على الصندلية(*)، يدس رجليه تحت الخزانة وكان يســتلقي إلى الوراء لامسا بقفاه الأرض.

كان، «ينفــخ عضلاتــه» دائمــا. حتى أثنــاء تأديتــه للواجبات المنزلية.

كان يدرس الشعر، كان يراجع المواد التي جرى تدريسها في الفصل وينفخ عضلاته، كان يقول، إنه على هذا النحو كل شيء يحفظ في الذاكرة بشكل أحسن. في الأمسيات كان يضرب طويلا بكعبيه ملف الجرائــد المعلقة على الحائط. كان يقفــز ويضرب الجريدة بكعبه، يرتــد عن الحائط ويضرب مــن جديد. كل يــوم كان بكبرياء ينزع بأسنانه جريدة واحدة من الحزمة المرتبة. ذات يوم، عندما أصبحت رزمة الصحف على الحائط رفيعة بشــكل ملحوظ، تساقط الطلاء من على الحائط أثناء التمرين الدوري، أفلتت إضبارة الصحف من المسمار. كان مستمرا بعنف في ضرب الطابوق العاري بكعبيه. جاء العاملون الكبار في الســن، صبغوا الحائط، لم يؤنبوه، كانوا يدركون أنــه لم يكن متعمدا. نصحــوه أن يتمرن على الحائط الخرســاني للمرآب وهم يضحكون. عديم اليدين كان يستيقظ قبل الكل، يخرج إلى الشارع ويضرب الحائط الخرساني الذي ليس له ذنب. الآن كان يســتطيع أن يدرّب رجليه في كل صباح أيضا، من غير أن يخلّ بنوم الصباح للآخرين. شاب قوي.

لدى سيريوغا يدان. كان يقوى جسمه بصورة طبيعية. لكن عندما كان يشــد جســمه إلى أعلى العارضة، كان يضع على ظهره حقيبة

(*) كرسي بلا مسند.

الظهــر. في البداية كان فـــي الحقيبة ثقل صغير للتعويض عن وزن الرجلين غير الموجودتين، ثم بدأ ســيريوغا بإضافة الدمبلات(*) في الحقيبة. لكن حتى مع الحقيبة الثقيلة على الظهر كان يســتطيع أن يشد جسمه إلى أعلى أكثر من أربعين مرة دفعة واحدة.

فكــرة حقــيبــة الظــهر أعــجبت حتى معلــم التربية البدنية، الذي بــدأ أيضا بالحضور إلى التمارين مــع حقيبة الظهر. من ضمــن واجبات معلم التربية البدنية ممارســة الرياضة البدنية الصباحيــة مع الأطفال، لم يكن أحــد تقريبا يذهب إلى دروس التربية البدنية أبدا.

لكــن في ذلك العام أصبح معلــم التربية البدنية المعلّم الأهم في المدرســة، أكثر أهمية مــن معلم الرياضيات. كان يســاعد الفتيان كثيرا جدا. كان يبتدع أجهزة تدريب للمعوقين بنفسه. كان يحذّر من الإرهاق، يقرأ محاضرات طويلة في علم التشريح. إنه معلم جيد.

أصبحت أدوات الدفع الخاصة به مصدر فخر ســيريوغا. كانوا يســمون أدوات الدفع لوحات صغيرة مع مقابض، التي كان المعوقون عديمــو الرجلين يندفعون بها عن الأرض، وهم يتنقلون على عربات نقل منخفضة بكراسي تحميل.

كان سيريوغا بنفسه يلحم أدوات الدفع الخاصة به في درس العمل من أنابيب ألومنيوم. ظلت أدوات الدفع الألومنيوم بنعلات مطاطية خفيفة ليس لوقت طويل. كان ســيريوغا في كل مســاء يضرم شــعلة نار صغيرة في فناء المدرسة، كان يصهر الرصاص ويســكب قليلا منه في أدوات الدفــع الخاصة به، وكانت تصبح

(*) كرتان حديديتان يربط بينهما قضيب (تمرن بها العضلات).

أثقل بمرور الأيام. كان يســتعملها كالعادة. كان يتدحرج كالمعتاد على عربة النقل في منطقة دار الأطفال، لكن كان عنده الآن في متناول اليد دمبلات مريحة بصفة دائمة. كل أداة دفع كانت تزن حتى الربيع خمسة كيلو غرامات تماما. قرر سيريوغا أن يتوقف عند الكيلو غرامات الخمسة.

ودّعوا سيريوغا لقضاء العطلة الصيفية بهدوء، لاحظنا أنه أثناء شــهور التمرينات الشتوية أصبح ســيريوغا قويا جدا، لكن هذا لم يكن يعني شــيئا إطلاقا. كل مرة، عندما كان سيريوغا يحقق نتيجة ما، كنا ندرك أن هذا على حد سواء قليل، قليل جدا. كان سيريوغا يتمــرن كل يــوم، لكن كان واضحــا تماما، أن هناك فــي مكان ما، فــي مدينة مولــده كان العدو يتدرب، نافخا كل عضلة من جســمه بالكامل. عندما اســتطاع ســيريوغا لأول مرة أن يشد جسمه إلى أعلى العارضة خمسين مرة، كنا واثقين بأن خصمه يشد جسمه إلى أعلى ما لا يقل بحال من الأحوال عن مائة مرة، كان سيريوغا يرفع الثقل بيده اليسرى ثماني مرات، وخصمه - عشرين مرة.

مضى الصيف بسرعة. صيف آخر في دار الأطفال. في الخريف، كالمعتاد، كان الوالدان يوصــلان الأطفال إلى دار الأطفال. أوصلوا كذلك سيريوغا.

لم يكن أحد يســأل عن العراك، ســيريوغا لم يكن يحكي. فقط مرة ما، عندما جاء سيريوغا إلى الأولاد في مرة دورية، سأله غينكا، نوّه فحســب. دسّ كلمة ما غير واضحــة عن الراحة الصيفية. فهم ســيريوغا بســرعة، ارتبك، غض عينيه. كان من غير الملائم رفض طلب غينكا.

- لم يحدث عراك - قال سيريوغا بصوت خافت - لم يحدث. في أول مساء، حالما وصلت إلى البيت، وجدته. كان يقف مع شاب ما، يدخنان. سألته، هل يذكرني، أجاب بأنه يذكر. عندئذ ضربته بكل قوتي بأداة الدفع على ركبته. انكسرت رجله، انخلعت إلى الوراء. سقط. بدأ يصرخ بشدة، أخذ ينادي أمه. ضربته على بطنه مرتين. أحدث صوتا. استدرت ناحية صديقه، اعتقدت أنني سأضطر إلى العراك مع الاثنين، أمّا صديقه فقد أخذ يجري لينادي الكبار. الواشي. جاءوا ركضا، استدعوا الطبيب. سألوا، بماذا ضربته، أجبت، باليدين. حدثت ضجة. كان في جيبه سكين فعلا.

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك لا شيء. جاء أبوه إلينا في البيت. جلس مع أهلي، تناولوا شيئا من الشراب.

حكيت لأبيه كل شيء بأمانة. وبعد ذلك تعرفت على ذلك الفتى. شاب طبيعي لكنه ضعيف. كان يمشي على العكازتين كل الصيف. شيء غريب، دعوته إلى صيد السمك، وأجاب بأنهم لا يسمحون له بالمشي على العكازتين بعيدا. والداه أيضا غريبا الأطوار. حاولت أن أشرح لهما أن نصف نزلاء دار الأطفال يمشون على العكازات، لم يفهما. أما صيد السمك فكان جيدا في هذا الصيف. اصطدت سمكة كراكيف. صيد سمك جيد.

في المساء كان الأولاد يتجادلون طويلا. لم يستطيعوا مطلقا الإدراك، لماذا لم يتعارك ذلك الفتى بالرجل المكسورة، إذ بقيت لديه يدان كاملتان، ورجل سليمة، إضافة إلى سكين في جيبه؟ غريب الأطوار، صديقه أيضا غريب الأطوار.

الإسبانية

في المستشفى. أنا راقد في الجبس حتى خاصرتي. راقد على ظهري. راقد أكثر من عام. أنظر إلى السقف. أكثر من عام أنظر إلى المكان نفسه في السقف. لا أرغب في العيش أبدا. أنا أحاول أن آكل وأشرب كمية أقل. أحاول جيدا. أحاول، لأنني أعرف أنه كلما أكلت أقل، احتجت إلى المساعدة أقل.

طلب المساعدة من الآخرين - الشيء الأكثر رعبا وإزعاجا في الحياة.

الطواف. كان الطبيب يطوف في العنابر بمصاحبة طلاب شباب. يقترب من سريري. ينظر إلى بطاقة فحص المريض الخاصة بي ويقرأ بصوت مسموع، ما أسمعه على مدار السنة. يتكلم عن يديّ ورجليّ وعن القصور العقلي. لقد تعودت على ذلك.

الطواف يحصل مرارا. تعودت على الكثير في هذا المستشفى. بالنسبة إليّ على حد سواء تقريبا.

الطبيب يرفع عني الشرشف، يتناول المؤشر، يُري الطلاب الذين ملوا جسمي طويلا، وبشكل ممل يشرح لهم طرق العلاج وهراء آخر. الطلاب نائمون تقريبا.

- كم يصبح اثنان زائد اثنين؟ - يسألني فجأة.

- أربعة.

- وثلاثة زائد ثلاثة.

- ستة.

يفرح الطلاب، يستيقظون تقريبا. الطبيب يشرح لهم باختصار وبصورة مقنعة، أن ليست كل أجزاء المخ عندي مُصابة.

«الولد يذكر حتى اسمه ويتعرف على الأطباء». يبتسم لي. أعرف مثل هذه الابتسامات، أمقتها. هكذا يبتسمون للأطفال الصغار جدا أو للحيوانات.

يبتسمون بلا إخلاص.

- وكم يصبح اثنان ضرب اثنين؟

كلمة «ضرب» ينطقها بضغط خاص. لقد طفح الكيل. حتى بالنسبة إليّ قد طفح الكيل، حتى في هذا المستشفى، لعنة الله عليه.

- اثنان في اثنين يصبح أربعة، ثلاثة في ثلاثة - تسعة، أربعة في أربعة - ستة عشر. أشعر بالبرد. غطوني بالشرشف أو على الأقل أغلقوا الكوة(*). نعم، أنا مأفون، أعرف هذا، لكن المأفونين يشعرون بالبرد أيضا. أنا لست أرنب تجارب بالنسبة إليكم.

سمعت التركيب اللفظي «أرنب تجارب» خلسة في غرفة التضميد. ينظر الطبيب إليّ بصورة غريبة جدا. واقف. ساكت. فتاة من حاشيته تنحني عليّ بسرعة، تغطيني بالشرشف، وعلى هذا النحو تبتعد بسرعة.

انتهى الطواف.

في المساء تقترب مني امرأة في ثوب منزلي، شابة وجميلة. كانت من دون رداء أبيض. أكثر من عام لم أر أناسا من دون أردية بيضاء.

(*) الجزء العلوي من النافذة.

تميل عليّ بحزم، تسأل:

- أنت إسباني؟

- نعم.

- أنا أيضا إسبانية. أدرس في معهد المعلمين العالي. كلفونا بواجب إعادة سرد قصة

«كلمة عن فوج إيغر»(*). النص صعب، لا أفهم شيئا، هل تساعدني؟

- لكنني مازلت صغيرا، وأنتم تدرسون في المعهد العالي.

- قل لي «أنت».

- حسنا، سأجتهد في مساعدتك. تخرج من الحقيبة كتابا، تقرب الكرسي من سريري، تقرأ. تقرأ ببطء، حسب المقاطع الصوتية تقريبا. أعرف أكثر الكلمات «غير المفهومة»، وللكلمات، التي لا أعرفها، عملت حاشيات سفلية ملائمة لها في الكتاب. كتاب جيد.

تُظلم الدنيا. حان لها أن تذهب. تغلق الكتاب، تنهض.

- نحن لم نطالع بعد كل شيء، سأحضر غدا، اسمي لوليتا.

- اسمي - رُوبين.

تبتسم.

- أعرف، ما اسمك؟ سأحضر غدا يا رُوبين.

لم أنم تقريبا في الليل. لم يحضر إليّ أحد أبدا. عند الكل تقريبا «حيث الحرية» كان ثمة أحد ما: الوالدان، الجدات والأجداد، الإخوة والأخوات. قدم إليّ شاب - جورجي حتى ابن عمه. والداه توفيا، تربى عند عمه. كان الجورجي يوضح لي أن ابن عمه - من

(*) قصة روسية قديمة.

ذوي القربى. وذو القربى كان يقول لي، أقرب إنسان على الأرض. كان عنده الكثير من ذوي القربى. أنا لم يكن عندي أحد.

حضر إلينا الرؤساء في اليوم التالي. تولى معهد المعلمين العالي فجأة رعاية قسم الأطفال في مستشفانا. أي أنهم كانوا شكليا رؤساء، ربما، حتى قبل هذا الوقت، لكنهم في هذا اليوم خاصة جاءوا إلى عنبرنا بالذات. من بين الرؤساء، بطبيعة الحال، كانت لوليتا.

طرحت رداء أبيض فوق الفستان.

اقتربت من سريري.

- أترى، لقد حضرت. لماذا تبكي؟

* * *

الرؤساء كثيرا ما كانوا يجيئون كل يوم أحد تقريبا. لوليتا لم تكن دائما موجودة، لكنها عندما تكون موجودة، كانت تجلس طويلا عند سريري. كنا نتحدث. كنا ببساطة نثرثر. التحدث مع إنسان - كان بالنسبة إليّ كثيرا جدا، كثيرا جدا للوعي الطفولي. ترف فاتن. أما بالنسبة إليها فكل شيء كان لا يكفيها ودائما لا يكفيها. كان لا يكفيها أن تأتي ببساطة إلى طفل وحيد مريض. أحضر الطلاب في إحدى المرات جهاز عرض سينمائي. كانوا يعرضون في غرفة الراحة أفلام صور متحركة، بقيت وحدي في الغرفة كالمعتاد. دخلت لوليتا، نظرت إليّ، قالت شيئا ما، لقد أجبت بشيء ما. ربما، مزاجها اليوم سيئ، اعتقدتُ ذلك، جرت بسرعة من الغرفة. وفي يوم الأحد التالي حمل الطلاب إلى داخل الغرفة جهاز العرض السينمائي.

أداروا سريري إلى جهة الحائط. كان الذئب المُسلي في البقعة المضيئة على حائط المستشفى يحاول بلا جدوى الإمساك بالأرنب الشاطر. كل الحلقات العشر في أشهر فيلم صور متحركة روسي. شاهدت هذا الفيلم لأول مرة في حياتي.

كان كل شيء مع لوليتا لأول مرة. لأول مرة نقلوني من السرير إلى النقالة وأخرجوني إلى الشارع. لأول مرة استطعت طوال حياتي في المستشفى أن أرى السماء. السماء بدلا من السقف الأبيض الأبدي.

* * *

عيد. في المستشفى عيد. الأعياد لم تكن تخصني، كنت أستخف بالأعياد. كل واحد في مكان ما كان يمضي الوقت بسرور.

لوليتا الجميلة جدا دخلت جريا إلى العنبر، في بدلة إسبانية، وقد طلت نفسها بألوان زاهية وكانت من دون رداء.

- الآن يا رُوبين، سيجلبون النقالة، وسننقلك إلى غرفة الراحة. سأرقص اليوم.

مسرورة وجميلة. عيد حقيقي حيّ.

دخلت الممرضة إلى الغرفة. ممرضة عادية في رداء أبيض.

- لا يجوز نقل المريض. لقد أجريت له عملية أخيرا.

مع قدوم لوليتا نسيت العملية. الأطباء في مرة دورية قطعوا الجبس عني، ألم دوري لا معنى له. ممنوع. كل شيء ممنوع للأبد. على أي حال، تعودت، لقد تعودت تقريبا على «ممنوع» الأبدية. لوليتا لم تتعود. جرت من العنبر. انصرفت.

بعد دقيقتين دخلوا مسرعين في ضجة، أخذوا يتحدثون

بالإسبانية. لوليتا، پابلو وشاب قصير ذو شاربين. كان مع پابلو جيتار، كنت أعرف پابلو. ذو الشاربين انتقل إلى اللغة الروسية.

- يجب أن تكوني في الحفلة، في الحال.

- سأرقص هنا. هنا والآن.

- سترقصين حيثما يقولون لك. سآخذ الجيتار. پابلو، فلنذهب.

- هل ستذهب، يا پابلو؟

لوليتا نظرت بحماس إلى الشاب طويل القامة. نظرت علنا، بتحد، بسرور. پابلو غض طرفه.

ذو الشاربين انصرف، وذهب پابلو التعيس. بقينا وحدنا في عنبر المستشفى.

لوليتا كانت ترقص. مُنقرة الإيقاع بأصابعها.

لوليتا كانت ترقص لنفسها. كانت تنقر بجهد وبدقة لحنا بعيدا وغريبا. من دون جيتار، من دون پابلو.

كانت ترقص بصدق، بكامل جسدها.

أحيانا كانت تفد إلينا في دار الأطفال جماعات راقصة. شابات حمقاوات كن يدسّن باجتهاد خشبة مسرح نادي دار الأطفال. كان عريف الحفلة يخرج إلى خشبة المسرح، ويعلن العرض التالي.

الحمقاوات كن يدسن خشبة المسرح بطريقة أخرى. بصورة مملة.

تم الإخلال بالنظام المُقرر مرة واحدة فقط. بمناسبة يوم النصر وفد إلينا فريق دوري راقص. كانوا يشغّلون موسيقي مألوفة لكن ليس لأول مرة. فجأة جرى إلى خشبة المسرح معلم التاريخ، همس

بشيء ما في أذن عازف الهارمونيكا الحائر. أخذ يرقص مثنيا على ركبتيه، ويرن بالأوسمة. تفرقت الفتيات من أمام المحارب القديم، لم يزعجنه. تناول الشخص شيئا من الشراب، فليرقص. المعلم فعلا تناول شيئا قليلا من الشراب في ذلك اليوم لأنه يوم النصر. كان يرقص بمهارة، بغرابة للغاية وبحرية.

بدا لي ظهوره على خشبة المسرح مألوفا بشكل لا يُدرك. كانت تفوح منه رائحة الحرية، القوة.

لم أر مثل هذا أبدا.

لكن لأول مرة رأيت رقصا حقيقيا حيّا في مستشفى في شمال روسيا، رقصا حقيقيا، رقصا إسبانيا.

* * *

ودّعنا بعضنا بعضا. كان يجب على لوليتا السفر.

- سأجدك يا ولد. سأكتب لك حتما، انتظر.

وعدت أن تكتب، لم أصدق، مرة تالية لم أصدق.

- لن تستطيعي أن تجديني. أنا لا أعرف حتى إلى أي دار أطفال سينقلونني.

لم أصدق.

بعد عامين وصلتني رسالة. رسالة عادية. أول رسالة في حياتي. في الرسالة - بطاقة بريدية جميلة. في البطاقة - راقصة إسبانية في ثوب مختلف الألوان. الثوب في البطاقة كان مُوشى بخيوط ملونة. لم يكونوا يُصدرون مثل هذه البطاقات في روسيا.

الحاضنة أعطتني الرسالة. وضعت أمامي ظرفا مفتوحا. جلست في الجانب المقابل.

- رُوبين. يجب عليّ أن أتكلم معك بجدية. قرأت الرسالة. ليس ثمة شيء خطير. لا يوجد بعد. آمل، أنت تفهم ذلك، إنك لن تستطيع كتابة الرد. إسبانيا - بلد رأسمالي. لا يوصي بمراسلة البلاد الرأسمالية. من المحتمل أن يكون كل أجنبي جاسوسا. أنت ولد ذكي ويجب أن تفهم، إن إدارة دار الأطفال لا يحق لها أن تعرضك لمثل هذا الخطر.

أخذت الظرف، وانصرفت.

تأملت بطاقة البريد طويلا، ثم أخفيتها في كتاب الرياضيات الدراسي.

في الصباح التالي لم تكن البطاقة موجودة في الكتاب الدراسي.

المريض النفسي

دار الأطفـــال. مكان صحيح. إذا وصلـــت إلى دار الأطفال – فقد وُفقت. تكمل المدرسة، تعود إلى البيت إنسانا آخر، شخصا آخر تماما. شــهادة الدراســـة الثانوية في الجيب، أمامك حياة كاملة. المجال مفـتوح أمـامك في المســـتقبل. ليس عندك رجل أو يد، هذا هراء.

ها هـــو الجار العم بيتيـــا أتى من الحرب مـــن دون رجلين، وما العمل، يريد العيش.

زوجته حســـناء، ابنته تدرس اللغـــات الأجنبية في المعهد العالي، ماهرة. كل شيء كما ينبغي عند العم بيتيا، الحرب علّمت العم بيتيا الحياة، وأنت علمتك دار الأطفال الحياة.

عندما تصل إلى البيت، تناول مع أبيك مائتين وخمســـين غراما من الشراب لكل منكما، ابدأا بالتدخين. أبوك سيفهم كل شيء، هو نفســـه خدم فـــي الجيش، يعرف، وهو خبير فـــي الحياة. لكن أمك ســـتبكي. هذا شيء ســـيئ. عندما تبكي النساء، شـــيء سيئ على الدوام. لا تبكي يا أمي، كل شـــيء عندي ســـيكون على ما يرام، كل شيء كما عند الناس. ليس أسوأ، من الذي عند العم بيتيا.

دار الأطفـــال – هـــذه ليســـت فقط ســـكنا داخليا. هـــذه أيضا مدرســـة. مدرسة جيدة، والمعلمون طيبون. كتب ذكية، هم يطعموننا ثلاث مرات في اليوم. مكان جيد – دار الأطفال. الأصدقاء طيبون. أصدقاء حقيقيون، إلى مدى الحياة.

* * *

جـاءوا بولد جديد إلـى دار الأطفال. لا يلـزم الفراش، مريض بشـلل الأطفال الدماغي. أنا أيضا مريض بشلل الأطفال الدماغي، لكن عند الولد الجديد كان كل شـيء إلـى حد معين على ما يرام. مشية غير مستقيمة، اليدان موضوعتان في جهتين مختلفتين.

الوجه يرتعش في محاولة دائمة لوقف اللعاب. ذكي أم أحمق؟ لا يمكـن تحديد ذلك من الوجه. الولد الجديد لغز. الولد الجديد لغز على الدوام، دوما هناك تسلية.

ثمـة عادة مضـحكة في دار الأطـفال. عندما يسـتغرق في التفكير المريـض بشـلل الأطفال الدماغي بشـدة أو يركّز على شـيء ما، ينبغي الاقتراب منه خلسـة وإطلاق صرخة في أذنه. سـيرتعش الشخص فجأة، وإذا لم يفق في الحال، فمن المحتمل أن يقع من على الكرسي. سيرتعش ولو ببساطة ويسقط من يديه قلم الحبر، فإن هذا لن يكون مضحكا جدا. أحسن شيء التربّص به، عندما يشرب شايا ساخنا أو أي شراب آخر. مع ذلك سيكون الوضـع مضحكا أكثر من أي شـيء آخر. من المحتمل أن يصبوا له الشـاي، إنما مع النبيذ لا تمر مثل هذه الحيل. المذنب نفسه، غفل، وتراخى.

كنت أعرف في نفسـي مثل هذا الضعف - الرجفة من الصفقة أو الصرخة المفاجئة، لهذا السبب كنت دائما أجتهد أن أشغل موقعا مناسـبا في وضع غير معروف، الاختباء في الزاوية أو التسلل إلى تحت الطاولة.

البصيرة - هذا عُرف. وكيف إذن؟ هذه دار أطفال.

دخـل الولد الجديد إلى الغرفة بحريـة، بحرية أكثر من اللازم. وضـع حقيبة الظهـر. هوى على أقرب سـرير. الرجلان في اتجاه البـاب، اليد كالعـادة تبحث في الجيب عن المنديـل أخرج المنديل، مسح اللعاب غير الموجود.

فجأة دخل الجميـع معا، بدأوا يقهقهـون. الأصدقاء، أصدقاء المستقبل.

- ما بالك، أيها الولد الجديد؟ ولماذا استلقيت على سريري؟

- انتظر. سـأنهض الآن. أنا مريض بـ «شـاد » (شـلل الأطفال الدماغي).

كلمة «شـاد» تنطق بوضـوح، بمعنـى. من الواضـح أن الشخص لا يمزح. هذا الشخص متوعك ولهذا سقط على السرير.

- انهـض، لا ترقد، انتهت الدروس. سـنأكل الآن. هل تريد شايا؟

سـكبوا كوبا مليئا بالشـاي، لم يبخلوا. ووضـعوا له كمية سـكر كبيرة بطيب خاطر. كما هو ظاهر على الفور - شـباب طيبـون. قبلوه، أي أنـه أصبح واحدا منـهم. جمـع إرادته في قبضتـه، جلس ثم قام ببطء، وانتـقل للجلوس على الكرسـي. رفع بيديه الاثنتين الكوب المعدني الذي لا يزال ساخنا، حاول أن يرشف رشفة.

- با! - بصوت مرتفع جدا، ولد على العكازتين أطلق صرخة في أذنه بصوت مرتفع للغاية.

سـقط. يده ألقت تلقائيا الكوب السـاخن في اتجاه المسيء. لم يصبه. لو أنه أصابه في عينه ! لا ضير من التخيّل.

ربح اليانصيب يحــدث نادرا. الكوب اصطــدم بصدغ البهيمة. كحد أعلى ستبقى كدمة، لا أكثر. دقيقة. فقط دقيقة. مُجرد دقيقة، ريثما يقهقهون بمودة.

واحد، اثنان، ثلاثة...

تذكــر، مــاذا قرأت عن كاســيوس كلاي، أو محمــد علي؟ هذا ليس مهما. هم بعد لا يعرفون، ولا يســتطيعون حتى أن يتصوروا، ماذا هناك، في جوفاشــيا(*)، أنت بطل المدينة في الملاكمة وســط الأصحاء.

«وســط الأصحاء» - اللقب، الذي منحته لنفســك بنفسك. كل الألقاب الأخرى - على العكس، تُقيّد. بطل العالم وســط الأصحاء - تُسمع كإهانة شخصية.

لكنك لم تُهن أحدا. الحكم لم يســتطع أن يجد موضعا للانتقاد. اللعاب يسيل من تحت الخوذة - لأن هذا من الغيظ. اليدان ترتعشان، الرجلان ترقصان - هذا تكتيك المدرب.

أن تكــون دائما في الصورة. أن تلعب باســتمرار دور الشــخص السليم. أن تمثل شخصا ما. أنت في الواقع قد عرفت، أن الأصحاء ليسوا دائما أصحاء.

إنهم أحيــانا فقــط يشــدّون لحــل مســائل معينــة. أمّا أنت فمشــدود دائما. بالنســبة إليــك على حد ســواء، أن تضرب باليســرى أم باليمنــي، اليــدان لا تعملان. لكــن إذا لزم الأمر، فبالإمكان بذل الجهــد، عبر الألم، عبر الــتوتر العصبي والتقزز من إفراز اللعاب الزائد.

(*) منطقة في روسيا.

عندئذ - كل شـــيء ممكن. ولا أحد ســيمنعك. عندئذ - ضربة دقيقة في خوذة الخصم. ضربة عادية.

كالمعتاد. مثل طوال الحياة. أمر عادي. من كل بد لا أحد سيصفق لك، عندما تزرر سحاب البنطلون هم يزررون سحاب البنطلون. كل يوم، ولا يعطونهم مقابل هذا أوسمة. ورئيس بلدية المدينة يصافحهم في حفلة استقبال.

أربعة، خمسة، ستة...

يجــب النهوض. قميص مبلول وكتف محروق من الماء الذي يغلي - هراء.

كان من الممكن أن يكون الوضع أســوأ. كل شــيء كان من الممكن أن يحدث. كان باســتطاعتهم الانقضاض ليــلا، وتغطيتك بالغطاء وضربك. هكذا ببســاطة، لأنك ولد جديد. حتى تعرف موقعك من الإعــراب. أو الانقضاض عليك منهم جميعا، على المكشــوف. هذا دائما أحســن، عندما يكون على المكشــوف. على أي حال، لم يحن المســاء بعد، سيحل الليل، سيضربونك. لهذا السبب يجب النهوض، النهــوض فــورا. وأن تكون قويا وصارما. لا ترغــب في العراك، لا ترغب بالمرة، لكن ينبغي عليك.

لقد نهض. شــيء غريب حصل، مازالــوا يضحكون. لم يفهموا. تلفــت حوله بســرعة. واقترب من الولد الــذي أطلق الصرخة في أذنه. ولد صغير، أصغر منه بعامين، ضئيل، على عكازتين. لماذا فعل ذلك إذن؟ شــيء غريب. ضربه، سقط الولد، طارت العكازتان. بدأ بضربه. لم يسمحوا له بضربه طويلا، انقضوا عليه من جهة ظهره، فرقوا بينهما.

- ما بالك؟ كان يمزح ! ألا تفهم النكات؟

- أ - أ - أفهم.

اللعنة ! تأتي اللعثمة في لحظة غير مناسبة. سيعتقدون الآن أنه خائف.

تركوه. نهض من جديد. نهض ببطء وذهب في اتجاه الراقد على الأرض. يجب ضربه. ضربه طويلا، عندئذ سيصدقون، إنك جاد، عندئذ سيقبلونك كإنسان.

- إلى أين أنت؟ لا داعي، يكفي.

وقف أمامه فتى، يبدو من منظره أنه سليم، ومن أترابه. من غير الممكن تحديد إعاقته على الفور. يبدو أنه، عندما اقترب، كان يتثاقل في المشي إلى حد ما.

- يكفي، اهدأ. اسمي حميد.

- كان يسدّد إلى حميد. إذن، في البداية في الفك، سيسقط. ثم بالإمكان الانقضاض بكامل الجسد وضربه طويلا. لن يسمحوا له طويلا، سيتدخلون، طبعا.

بعد ذلك سيضطر إلى العراك مع الكل في وقت واحد. حسنا، فلنبدأ.

أدرك حميد كل شيء فورا. تراجع خطوة، ابتسم.

- ما بالك، هل أنت مجنون؟ والآن ستضربني؟ وهل فعلت لك شيئا؟ كولكا كان يمزح ببساطة، أنت ضربته. أنتما متعادلان. يكفي.

- حسنا. يكفي. سأقتله في الليل أو هو سيقتلني.

ابتسم حميد مرة أخرى.

- طالعت كثيرا من الكتب عن السجن؟ هنا ليس سجنا. هذه دار أطفـــال. لا أحد يقتل أحدا. وقلما يتعاركون. هل فهمت؟ كولكا كان يمزح ببساطة. من الأفضل أن تجلس لشرب الشاي.

- لقد ارتويت.

حميد شـــاب ماهر. وكما يظهر في الحـــال، أنه فتى ذكي وهذا ليس يومه الأول في دار الأطفال.

- هل ستشرب النبيذ؟

- عندي ثلاثة روبلات.

- هل عندك نقود بعد؟

- هل أعطيك إياها دفعة واحدة؟

- لا تزعل، كنت أمزح.

بدأت الشفايف ترتعش، كان رأسه يختلج قليلا إلى الجانب.

حميد فهم، فهم كل شيء.

- لا داعي. هـــدّئ أعصابك. نقودك - هذه نقودك. لن يأخذها أحد منك. وقلما يسرقون النقود. ما اسمك؟

- أليكسي.

- يعنى، ليوخا؟

- أليكسي.

خطا أليكسي خطوة إلى الأمام. مع ذلك سيضطر إلى العراك.

- حسنا، أنت - أليكسي. لكن من الممكن أن أسميك ليوخا؟ وما الفرق؟

هذا لا يسيء إليك. أعطني يدك.

تصافحا.

- هل جلبت طعاما؟

ابتسـم أليكسـي، أخذ من على السـرير حقيبة الظهر الثقيلة، رماها على الطاولة.

انحلت الحقيبة بعد أن سـحب الشـريطين. أخـرج المحتويات ووضعهـا، وتناول من قاع الحقيبة اثنين من الدمبلات زنة كل واحد منهما خمسة كيلو غرامات. ابتعد، جلس على السرير.

- اهجم!

وضع حميد على مهل الأطعمة على الطاولة. شـحم، بصل، ثوم، بضع علب من اللحم. لم يكن هناك شـكولاتة، لا شـيء حلوا. أزاح جانبا مرطبان الخشاف.

- جدتي أعطتني الخشـاف، لـم أرغب في أخذه - حاول ليوخا التبرير بحيرة ومن دون لعثمة.

- طبيعي، طعامـك طيب. أما عصير الكوكتيل فسـنحتاج إليه أيضا، سنخلطه مع شراب آخر. ألم تجلب السجائر؟

- لا أدخن.

- هذا من الصواب. أنا أيضا لا أدخن.

* * *

كانوا يحتسون الشراب في المساء.

تناولوا السكاكين، قطعوا الخبز والشحم.

كان حميد يصنع شـطائر متقنة من الخبز والشـحم، كان على الطاولة شطيرة واحدة أمامه، الأخرى - أمام أليكسي.

حاول أليكسي أن يحول دون ذلك، كأنه بنفسه يستطيع أن يتحكم في السكين، لكن حتى حميد كف عن سماعه.

- اهدأ، يُسمح بالمساعدة. سأقطع أسرع منك، صحيح؟

تناول حميد القنينة، فتحها. سكب لنفسه كأسا مليئة، شربها ببطء. سكب الكأس الثانية لليوخا.

- هل تستطيع أن تشرب كأسا مليئة؟

- اسكب لي في الكوب.

تناول من حقيبة الظهر ؛كوب ألومنيوم بمقبض كبير.

- أمّا الولد الجديد فلا بأس به، يفقه. سعة الكأس مائتا غرام، سعة الكوب بالكامل أربعمائة غرام.

- أنت لم تفهم. أنا لا أستطيع أن أرفع الكأس. إذا أردت أن توفر فاسكب لي نصف الكوب.

- كما تريد. سأسكب لك كوبا مليئا، اشرب. وإذا لم تشرب، فلن تحصل على شيء.

تناول أليكسي كرسيا، ونقله إلى الطرف الآخر من الطاولة، بحيث يجلس ويكون ظهره باتجاه النافذة. وضع الثقل الحديدي على الطاولة أمامه. سكب حميد كوبا مليئا بالشراب، وضعه على الطاولة أمام أليكسي.

هذا ليس صعبا. الشرب من الكوب ليس صعبا بالمرة. يجب أن يتشبث باليد اليمنى في المقبض، وبالكف اليسرى يحيط بالكوب بإحكام ويشرب على مهل.

لا يوجد فرق فيما يشرب، سواء شاي أو أي شراب آخر؟

صمت الكل ريثما كان يشرب. لا بأس بالولد الجديد. في أول يوم شرب كوبا بلا توقف. شرب حتى النهاية، وضع الكوب على الطاولة. أخرج منديلا من جيبه، مسح وجهه وتلفت حوله.

مد حميد يده بالشطيرة.

- هل تتذوق؟

- فيما بعد.

- لا تستأ ياليوخا. ارفع الثقل الحديدي فحسب من على الطاولة، من فضلك.

يا لك من مجنون، ستضرب به أحدا ما.

بدأ الشـــراب بالتأثير. بدأ ليوخا بالضحك. كان يضحك بصوت عالٍ وبسرور.

أبعد الثقل الحديدي إلى تحت الطاولة. قرب إليه الشطائر، بدأ بالأكل.

دار أطفال جيدة، صحيحة. والشبان طيبون.

اليدان

أنـــا بلا يدين. وأنا مجبر على الاســـتغناء عنهما، يمكن بصعوبة كبيرة فقط تسميتهما يدين. أنا تعودت. أنا قادر على الطباعة على الكمبيوتر بســـبابة اليد اليسرى، وفي وســـعي وضع ملعقة في اليد اليمنى والأكل بصورة اعتيادية.

في الإمكان العيش من دون يدين. كنت أعرف شابا عديم اليدين، الذي تكيّف جيدا مع وضعه. كان يفعل كل شـــيء برجليه، كان يأكل برجليه، يتمشـــط، يخلع ويلبس ملابســـه. كان يحلق لحيته برجليه. حتـــى أنه تعلم خياطة الأزرار. كان يدخـــل كذلك الخيط في الإبرة بصورة مســـتقلة. كل يوم كان يمرّن جســـمه الصبياني - «كان ينفخ عضلاته». كان يستطيع أن يضرب خصمه - من دون أن يبذل جهودا كبيرة - برجله أرنبة أنفه أو في الفك في عراكات دار الأطفال. كان يتناول الشـــراب وهو يمسك الكأس بأســـنانه. ولد طبيعي من دار الأطفال.

العيش من دون يديـــن ليس أبدا بهذه الصعوبة، إذا كان موجودا عندك كل شيء آخر. كل شيء آخر - جسمي - نموه أكثر سوءا من اليدين.

اليدان - هذا الشـــيء الأهم. من الممكن القول، إن الشيء الأهم في الإنسان هو رأسه. من الممكن ألا نقول. حتى هكذا من الواضح، أن الرأس لن يستطيع البقاء حيا من دون اليدين. ليس مهما، هاتان يداك أم أنهما غريبتان؟

كانت عند سيرغي يدان. يدان سليمتان قويتان تماما. كل شيء كان طبيعيا أعلى خاصرته. اليدان، الكتفان، الرأس. عقل نيّر.

سيرغي ميخايلوف.

سيريوجا.

كان أحد أفضل التلاميذ في المدرسة. هذا كان لا يكفيه. كان يقرأ دائما المجلات العلمية - المشهورة، كان يشارك في المسابقات التي بالمراسلة والمخصصة للتلاميذ، كان يحل المسائل المنشورة في المجلات، يرسلها، ويتسلم شهادات ما.

في أسفل الخاصرة كانت رجلاه الملتويتان مستلقيتين في الوضعية الدائمة لزهرة اللوتس(*). لم يكن يشعر بأي شيء أسفل الخاصرة، لا شيء إطلاقا، لهذا السبب كان مجبرا دائما على حمل مُستقبل البول(**).

عندما كان البول يسيل من مُستقبل البول، كان يغير بنطلونه بنفسه. كان يفعل كل شيء بنفسه. لم يكن ينبغي عليه استدعاء الحاضنات، التذلل وطلب المساعدة. كان بنفسه يساعد أولئك، الذين كانوا أقل توفيقا. كان يطعم صديقه بالملعقة، يساعده في غسل رأسه وتبديل ملابسه.

لم يكن عنده والدان. كان من المقعدين. نقلوه إلى دار كبار السن بعد إتمامه الدراسة في المدرسة.

في دار كبار السن وضعوه في عنبر مع اثنين من المسنين. المسنان كانا بريئين، أحدهما - إسكافي - كان يصهر غراء الأحذية في الفرن الكهربائي، الآخر - يحتضر تقريبا - كان لا يعقل شيئا

(*) يجلس متربعا (رجل على رجل).

(**) أو جامع البول (نربيش).

تقريبا، كان البول يســيل من ســريره. لم يعطوا سيريوچا الملابس الداخليــة البديلة. أوضحوا له أن من المقرر تبديل ســرواله مرة كل عشرة أيام.

كان مســتلقيا ثلاثة أســابيع في العنبر مع رائحة القذارة وغراء الأحذية. لم يأكل شيئا لمدة ثلاثة أسابيع، كان يجتهد في أن يشرب الماء بكمية أقل.

لم يقرر الزحف إلى الشارع عاريا، وهو مربوط إلى مُستقبل بوله حتى يرى الشمس لآخر مرة. توفي بعد ثلاثة أسابيع.

كان من المفترض أن ينقلوني إلى هذه الدار بعد عام.

سيرغي كانت عنده يدان، أنا لم يكن عندي.

دار كبار السن

منذ العاشرة من عمري كنت أخاف أن أجد نفسي في دار المجانين أو دار كبار السن.

كان من السهل ألا أكون في دار المجانين. كان ينبغي فقط أن تسلك سلوكا حسنا، تطيع الكبار وألا تشتكي، لا تشتك أبدا. أولئك، الذين كانوا يشتكون من الطعام السيئ أو يستاؤون من أفعال الكبار، كانوا من وقت إلى آخر ينقلونهم إلى دار المجانين.

كانوا يعودون هادئين ومطيعين، وفي الليل كانوا يحكون لنا قصصا مخيفة عن الممرضين الشريرين.

كان يصل إلى دار كبار السن، كل الذين لم يكونوا يمشون. بلا أي سبب، هكذا ببساطة.

كان يتجنب دار كبار السن، فقط، أولئك الذين كانوا يستطيعون الحصول على مهنة. الخريجون الأذكياء كانوا يلتحقون بالمعاهد العليا بعد إتمام الدراسة في المدرسة، أولئك الذين كانوا أقل ذكاء كانوا يلتحقون بالمعاهد المتوسطة أو المدارس المهنية. كان يلتحق بالمعاهد العليا فقط التلاميذ الأكثر اجتهادا وموهبة. لقد درست أحسن من الكل. لكنني كنت مقعدا.

بعد انتهاء الدراسة في المدرسة كان الأقارب أحيانا يأخذون المقعدين إلى البيت. أنا لم يكن عندي أقارب.

* * *

كل شيء تغير بالنسبة إليّ بعدما علمت أنهم في يوم محدد

سينقلونني إلى هذا المكان المخيف، سيضعونني على السرير ويتركونني أموت من دون طعام ورعاية. المعلمون والمربون لم يعودوا كبارا ذوي نفوذ وحكماء. كنت أسمع المعلم كثيرا جدا وافكر في أنه من الممكن، أن هذا الشخص بالذات سينقلني لأموت.

عندما كانوا يشرحون لي عن النظريات وعدم المساواة كنت تلقائيا أستوعب مادة الدرس.

عندما كانوا يشرحون لي عن الكُتّاب العظام، لم يكن هذا ممتعا.

وعندما كانوا يشرحون لي عن معسكرات الاعتقال الفاشية، كنت أبدأ في البكاء فجأة.

وعندما بدأت الحاضنة التالية بالصراخ عليّ في إحدى المرات، أدركت بامتنان، أنها تملك الحق في الصراخ عليّ، لأنها تعتني بي. هناك، حيث سينقلونني، لن يعطيني أحد «القصرية». هذه المرأة نصف المتعلمة، طيبة، لكنني سيئ. سيئ، لأنني أنادي الحاضنات كثيرا جدا، لأنني آكل كثيرا جدا. سيئ، لأن أمي مومس بشرتها سوداء وتركتني لهم، لهؤلاء الخيرين والطيبين.

أنا - سيئ. لأجل أن أصبح طيبا، ينبغي عليّ عمل القليل جدا، وهذا الشيء يستطيع عمله تقريبا الكل، حتى الأكثر غباء. ينبغي النهوض والمشي.

لم يكن المعلمون يدركون، لماذا أبكي كل الوقت. لماذا لا أريد أن أتحدث مع أي واحد منهم، أن أكتب إنشاء عن موضوع «حر»؟

حتى الأفضل والأكثر ذكاء وطيبة منهم كانوا يرفضون الحديث

معي عن مستقبلي.

أمّا الموضوعات الأخرى فلم تكن تهمّني.

* * *

في ذلك العام، عندما أنهيت الصف الثامن، أغلقوا الصفين التاسع والعاشر في دار الأطفال الخاصة بنا. وزعوا تلاميذ الصفوف العليا على دور أطفال أخرى، ونقلوا البعض إلى دار المجانين. نقلوا شبانا أصحاء العقل إلى دار مجانين اعتيادية. لم يحالفهم الحظ، كما يحدث هذا مرارا مع المرضى بالشلل الدماغي، كان لديهم عيب في النطق.

اللجنة، التي جاءت، لم تجامل وأرسلتهم إلى مدرسة داخلية خاصة للمتخلفين عقليا.

ولقد بقيت الحدث الوحيد الأكبر سنا من المحدد حسب الأنظمة المتبعة. وحسب القانون كان لي الحق في التعليم لمدة عشر سنوات، لكن القانون لم يكن يهم أحدا.

نقلوني إلى دار كبار السن.

كان باص دار الأطفال يهتز بصورة مرعبة، كنا نسير على نتوءات. أوصلني مدير دار الأطفال بنفسه إلى دار كبار السن. كان يبتسم ابتسامة عريضة بأسنانه الذهبية، كان يدخن «كوسموس». كان دائما يدخن «كوسموس» فحسب. كان يدخن وينظر إلى النافذة التي أمامه.

أخرجوني من «الباص» مع العربة. لقد كنت معوقا مميزا. على كل حال لم يكن يجوز لخريجي دار الأطفال أن تكون لديهم عربات. كانوا ينقلونهم إلى دار كبار السن من دون عربات، يضعونهم على

السرير ويتركونهم. كان يجب أن يعطوا الشخص عربة أخرى في دار كبار السن خلال سنة حسب القانون. في دار كبار السن، حيث نقلوني، كانت هناك عربة واحدة فقط. عربة واحدة للكل. أولئك الذين كانوا يستطيعون من تلقاء أنفسهم التسلق فوق العربة من على السرير، كانوا «يتنزهون» عليها بالتناوب.

«النزهة» كانت محددة برواق المدرسة الداخلية.

كان الوقت في بداية الخريف من سبتمبر حيث إن الجو ليس باردا. ثمة مبنى خشبي منخفض مشيّد قبل الثورة. ليس هناك سور. في الفناء، الذي نبت فيه بكثرة راعي الحمام(*)، يتسكع أناس غرباء في سترات منزلية وقبعات شتوية ذات طرفين يغطيان الأذنين.

كان الخورس يغني(**). خورس دائم من أصوات نسائية متقدمة في السن.

لا أرى العجائز، كلهن في المسكن.
الغناء مسموع من الداخل .
آه، تزهر الويبُرنوم(***)
في الحقل عند جدول الماء
شابا يافعا
أنا أحببت...

أبدا. أبدا، لم أسمع مثل هذا الغناء الحزين - المحكوم عليه قبل هذه الحادثة أو بعدها. عندما ركبت الباص - كنت مضطربا، الاضطراب تحول إلى خمول، بعدما سمعت الخورس. أصبح كل

(*) نبات طفيلي.
(**) كورس (جوقة غناء).
(***) عشب ذو عناقيد من زهر أبيض.

شيء - بالنسبة إليّ - على حد سواء.

دحرجوا عربتي إلى الداخل. ثمة ظلمة كانت في الممر، كانت رائحة الرطوبة والفئران تفوح . أوصلوني إلى غرفة ما، تركوني وذهبوا.

الغرفة ليست كبيرة. كان الصبغ يتساقط من الحوائط. سريران حديديان وطاولة خشبية.

بعد مرور بعض الوقت، يدخل إلى الغرفة مدير دار الأطفال مع موظف من دار كبار السن والحاضنة. أعرف من الرداء الأزرق، أن هذه هي الحاضنة.

تقترب مني الحاضنة. تتأمل بانتباه.

آه، يا له من يافع ! ماذا يحدث حتى أصبحوا يأتون بمثل هؤلاء. ماذا يحدث؟ الناس فقدوا الضمير تماما .

تنصرف.

مدير دار الأطفال يدخن بعصبية، ويواصل بطريقة عملية الحديث المقطوع.

- لكن على الرغم من ذلك من الممكن،أن تأخذه؟ مطلوب ذلك للغاية.

- حتى لا تطلب ذلك، افهمني صح. هو الآن في السادسة عشرة من عمره. أليس كذلك؟

- في الخامسة عشرة - أصحح تلقائيا.

- في الخامسة عشرة - الرجل يوافقني - سيموت عندي بعد شهر، شهرين كحد أعلى. أملك الحق في دفن الأشخاص الذين ليسوا أصغر من ثمانية عشر عاما فقط. هذه دار كبار السن، هل

تفهم؟ أين سأبقيه طوال هذين العامين؟ أما الثلاجات فكلها معطلة. معطلة، هل تفهم؟ وتذكر، بماذا أجبتني قبل عام، عندما طلبت منك مساعدتي في موضوع الثلاجات.

هل تذكرت حتى لا تطلب ذلك؟ احمله وليغرب من هنا إلى مدرسة داخلية للمتخلفين عقليا. إنهم يملكون الحق لدفن المواليد إن شئت.

- لا تقرر فورا، فلنذهب لنتحدث. يجب علي الاتصال.

ينصرفون.

أجلس وحدي وقت الغسق. قطة تجري في الممر. فجأة تملأ الغرفة رائحة ما غريبة وكريهة جدا. تبدو نتنة بقوة أكثر. لا أفهم ماذا يحدث.

تدخل الحاضنة، تحمل صينية. تضع الصينية على الطاولة، تفتح الإضاءة. أرى مصدر الرائحة الغريبة. هذه عصيدة حمص. كومة خضراء متلاصقة، منظرها يطابق الرائحة.

في الصينية علاوة على العصيدة طبق البورتش وقطعة خبز. لا توجد ملعقة.

تنظر الحاضنة إلى الصينية، تلاحظ أن الملعقة غير موجودة. تخرج. تحضر الملعقة. ولكن الملعقة بكاملها في عصيدة الحمص الناشفة.

تكسر الحاضنة قشرة من قطعة الخبز الخاصة بي وتمسح بها الملعقة من دون اكتراث. تقذف الملعقة في البورتش.

تقترب مني. ترمقني بنظرة ثاقبة.

- كلا. لن يعيش إلى نهاية الشتاء. فعلا.

- عــذرا - أنا أقول - ولماذا الظــلام على هذا النحو هنا، ويهب الهواء من النافذة؟

- هذا معزِل، غرفة جيدة، وقريبة من الموقد.

أمّا أنت فسـيحددون لـك مكانا في العنبـر العمومي للمرضى الذين يلزمون الفراش. هناك يهب الهواء فعلا.

قلت إذن، إنك لن تعيش إلى نهاية الشتاء. تلك الدار قديمة.

- والقطط كثيرة عندكم؟

- لا توجد لدينا قطط.

- لكنني رأيت، كيف جرت قطة في الممر.

- هذه ليست قطة، هذا جرذ.

- كيف يكون جرذا في النهار؟

- وماذا في ذلك؟ نهارا، وليلا. نهارا الوضع لا بأس به، أمّا ليلا، عندما يجري في الممر، نغلق على أنفسـنا الباب في الغرفة ونخاف أن نخرج. وهو مشـاكس، منذ وقت قريب أكل جزءا من أذن إحدى المُسنّات المقعدات.

كُل، سيبرد الأكل.

تخرج الحاضنة.

أقرّب إلى نفسي الطبق، أحتسي البورتش تلقائيّا.

البورتش والعصيدة والحياة كلها قذارة.

أجلس. أفكر. فجأة يدخل المدير جريا إلى الغرفة.

يفرك يديه بسرور.

- ماذا إذن، يا غاليغو، لا يبقونك هنا، ولا حاجة إلى ذلك، سنعود إلى دار الأطفال. هل تريد العودة إلى دار الأطفال؟

- نعم أريد.

- وهذا صحيح ما تفعله.

ينظر إلى طبق الطعام.

- ستحضر إلى العشاء. ولن ننقلك إلى السكن الداخلي الخاص بالأمـــراض العصبية والنفســية. مفهوم؟ - ويـــردد ببطء: غا - لي - غو.

- غونساليس غاليغو، أصحح له.

- ماذا؟ تفهم كثيرا. قلت، غاليغو، يعني، غاليغو.

نصل إلى دار الأطفال. نحضر إلى العشاء.

- هـــات، احك، كيف الوضع هناك؟ شـــاب في عربة يطلب مني ذلك على العشاء.

- ليلا - أنا أقول - ليلا سأحكي لك.

اللغة

سـكن داخلي. دار كبار الســن. هذه الدار هي آخر مأوى وملجأ لي. النهاية. عطفة مســدودة. أكتب في الكراســة أفعالا إنجليزية غير صحيحة. ينقلون جثة على النقالة في الممر. الشـيوخ والعجائز يناقشون قائمة طعام الغد. أكتب في الكراسة.

نظّم أترابي - المعوقون اجتماعا كومسومولياً(*).

تــلا مـديـر الســكن الداخلي خطـابـا ترحيبيـا في قاعة الاحـتفـالات، مكرّسـا للذكــرى الدوريـــة لثــورة أكتــوبــر الاشــتراكية العظـمي. أكتـب في الكراسـة أفعـالا إنجلـيزية غير صحيحة. هشّــم رجـل عجـوز، وســجين ســابق، رأس جاره فـي العنبر بالعكـازة أثناء سـكرة دوريـة. انتحرت امرأة عجوز، حائزة لقب عامل قديم محنّك، انتحرت شنقا في خزانة الحائط.

تناولت امرأة في عربة المعوقين حفنة من الأقراص المنومة، حتى تغـادر هذا العالم الصحيـح إلى الأبد. أكتب في الكراســة أفعالا إنجليزية غير صحيحة.

كل شــيء صح. أنا لست إنســانا. أنا لم أستحق أكثر، لم أصبح سائق جرار أو عالِما. يطعمونني بدافع الشفقة. كل شيء صح. هكذا ينبغي.

صح، صح، صح.

الأفعال فقط غير صحيحة. التي تســتلقي بعناد في الكراسة،

(*) الكومسومول (اتحاد الشبيبة الشيوعي في الاتحاد السوفييتي).

تشـــق طريقها خلال حفيف العقبات اللاســـلكية. أنا أسمع الأفعال غيـــر الصحيحة للغة الإنجليزية غير الصحيحة. يقرأها المذيع غير الصحيح من أمريكا غير الصحيحة. أتعلم اللغة الإنجليزية بمثابرة، أنا الشـــخص غير الصحيح في العالم الصحيح تماما. أتعلم هكذا ببساطة، حتى لا أجن، حتى لا أصبح صحيحا.

العكازة

دار كبار السـن. مكان مخيف. يصبح الناس قسـاة من الضعف واليأس، أرواحهم مغطاة بدروع لا تُخترق. من المستحيل إدهاش أي إنسان بأي شيء. حياة اعتيادية لمأوى عجزة اعتيادي.

كانـت أربـع حاضنات يدحرجـن عربة يـد بعـجلة واحدة فيها بياضـات. كان رجـل عجـوز يجلس في العـربة ويصـرخ بأعلى صوته. لم يكـن على حق. إنه مذنـب. كسـرت رجـله فـي اليوم السـابق، والممـرضة - المدبـرة أوصـت بنـقله إلى الطابق الثالث(*). الطابق الثالث لشـخص كُسرت رجله هو حكم بالإعدام.

بقي ندماؤه أو مجرد معارفه في الطابق الثاني . كانوا يوزعون الطعام بانتظـام في الطابق الثاني، أمّا الحاضنات فكن يخرجن «القصريات». الأصـدقاء القادرون على المشي كانوا يستطيـعون اسـتدعاء الطـبيب أو الحاضنة، وإحضار بسكويت من المتجر. في الطابق الثـاني من الممـكن ضمان البقاء حيا بيدين سليمتـين، والثـبـات إلى أن تبـرأ الرجل، حتـى يلحقوك من جديـد بهم، ويبقوك في قائمة الأحياء.

الرجـل العجوز ذو الأفضال السـابقة علـى الجبهة كان يصرخ مهددا . كان يشـرح عن أربعين عاما مـن خدمته كعامل منجم. كان يهدد بصرامة بالشـكوى إلى المسؤول الأعلى. مدّ بيدين مرتعشتين حفنـة من الأوسـمة والميداليات ناحية الحاضنـات ! ومن كان في

(*) الطابق الثالث في روسيا يعادل الطابق الثاني في الكويت، حيث إن الطابق الأرضي يُسمى في روسيا بالطابق الأول.

حاجة إلى حلياته الصغيرة هذا الرجل الغريب الأطوار؟

كانت العربة تتدحرج بثقــة في اتجاه المصعد. الحاضنات لم يســتمعن له، كن يقمن بعملهــن. صرخة العجوز أصبحت خافتة أكثر، كف عن التهديد. لقد كان يطلب فقط، بعد أن تشبث بيأس بحياته عديمة النفع.

كان يتوسل ألا ينقلوه إلى الطابق الثالث هذا اليوم خاصة، والانتظار يومين «رجلاي ســتبرآن بسرعة، وسأستطيع المشــي»، عامل المنجم الســابق كان يحاول بلا جدوى إثارة شــعور الحنــان في الحاضنات. بــدأ بالبكاء بعد ذلك. للحظة، مجرد لحظة تذكر أنه فيما مضى كان إنسانا. انتفض من العربة، وتشبث بقبضة مميتة بباب المصعد.

ولكن ماذا بوســع يدين عجوزتين عمله مقابــل قوة أربع خالات سليمات؟ هكذا دحرجوه إلى المصعد وهو يبكي ويئن.

على كل حال. كان هناك وجود للإنسان، والآن انعدم وجوده.

* * *

كان النزلاء يصلون إلى مؤسستنا بطرق مختلفة.

البعض كان يأتي به الأقارب، والبعض الآخر كان يحضر بنفسه، بعد أن تعب من مشاق الحياة غير المتكلفة.

لكن السجناء في مأوى العجزة، كانوا يرون أنفسهم أكثر ثقة من الكل وأكثر بساطة من الآخرين.

الســجناء الســابقون، ذئاب محنكون، لم يحققوا لأنفســهم، حيث الحرية، بيتا ولا أســرة، كانوا يصلون إلينا فورا بعد انتهاء مدة سجنهم.

ضجة، صيحات منذ الصباح. الحاضنات يصرخن بكلمات بذيئة

على شيخ نحيف خفيف الحركة. يصرخن عبثا. هو في الواقع لم يرد إضافة العمل إليهم.

كل شيء كان كالمعتاد. كان يلعب الورق مع جاره في العنبر، كانا يحتسيان الشراب. لم يكن لون الورق يلائم الجار أو أن الجار حاول الخداع - لا تستطيع أن تميّز، إلاّ أن الرجل العجوز ضرب نديمه على رأسه بالعكازة فسال الدم من الرأس المكسور وأغرق الغرفة والتواليت، حيث جرّ قدميه ذلك المقامر المشوه، والممر من العنبر إلى التواليت.

لم يكن يرغب في أن يوسخ الأرضية، لم يكن يرغب، هذا هو الذي حدث.

الشيخ غمر عكازته الألومنيوم العادية بالرصاص حال قدومه إلى السكن الداخلي، كان يمشي متكئا عليها. الثلاثون عاما التي قضاها في السجن عوّدته الاهتمام بسلامته. وعكازته جيدة ثقيلة لا تزعج في العراك. كان يحب أداته، كان يعجبه أن يكون في متناول يده الضمان المطلق لحصانته الشخصية. وقد اعتذر بإخلاص عن الأرضية المتسخة. سامحوه، لكنهم نقلوه على كل حال إلى غرفة منفصلة حتى لا يثير المشاكل أكثر.

الحاضنات أثرن ضجة منذ الصباح الباكر كالمعتاد، كل شيء طبيعي، ليس ثمة شيء مخيف. سكتة دماغية حطمت الشيخ - السجين. السكتة الدماغية - هذا شيء خطير. استيقظ الشيخ، والنصف الأيمن من جسمه لا يمتثل للدماغ المُصاب. اليد اليمنى معلقة كالسوط، الرجل اليمنى لا تتحرك. يبتسم الرجل بنصف وجه خوفا من إرساله إلى الطابق الثالث والحكم عيه بالموت.

الممرضة - المدبرة المستعجلة تجري، تصدر الأوامر. قد أفطرت الحاضنات، بفرح، يذهبن على مهل لتنفيذ رغبة المسـؤولين. يمكن عدم الاستعجال - الشيخ لن يختفي إلى أي مكان.

لكن السجين لم يكن مستعجلا إلى العالم الآخر.

لم يمل من الشمس، لم يأخذ بعد كفايته من الشراب. كان يتأوه بصعوبة، أمسك العكازة بيده اليسرى، كان مستلقيا، انتظر.

جاءت الحاضنات. نظرن بتعجب إلى العجوز مع العكازة المرفوعة.

السـجين كان ينظر بسـرعة إلى الداخلين، ولـم يعطهم فرصة ليثوبوا إلى رشدهم، وأخذ في الكلام. نظرة وحش مضطهد، نظرة ثقيلة لاذعة، العكازة الثقيلة لا تهتز في يد الشخص المسن.

- مـاذا؟ أتيـتن لتأخذنني، يا بائسـات؟ تعالـي، اقتربي، أنتِ سـتكونين الأولى؟ أما أنت فسأهشم رأسـك، أعدك بذلك. إذا لم أقتلك، فسوف أشوّهك.

كان ينظـر بثقة، مباشـرة. كان الرجل يدرك أنه يحاول أن يلعب ملعوبا. ماذا كان بوسعه عمله هذا المشلول؟ كن يستطعن الانقضاض عليه كلهن معا، ويأخذن العصا. لكن لم تكن إحداهن تريد أن تكون الأولى. كن يخفن من التشويه، كن يخفن من عصاه.

لأن الجاني، سيضرب، ولن يتحسر.

النساء لم يترددن ولا ثانية، خرجن جميعا معا.

الممرضـة - المدبّرة كانت تجري في الممر، تصرخ عليهن، تقنعهن - بلا جدوى. نصحوا أولاهن بالدخول إلى السجين وأخذ العصا.

الممرضة اسـتدعت المدبرة رئيس قسـم الشرطة وهي في حالة حقد شديد.

رئيس قسم الشرطة، رجل جدّي، سيحال إلى المعاش بعد عامين. قدم حسب الاستدعاء العاجل، هيئة عسكرية، المسدس في الجراب. دخل إلى السجين في الغرفة، نظر إلى مخالف النظام العام.

كان هناك شيخ نحيف مستلقيا على الفراش، ولأمر ما كان يمسك بيده العكازة .

- تخالف النظام العام؟

- ما بالكم، أيها الرئيس المواطن(*)، أي نظام؟ ألا ترون كيف أدنفني المرض؟

مال الشرطي على المريض، طرح الشرشف جانبا.

- هل استدعيتم الطبيب؟

- جاءت الممرضة، أعطته الحقنة.

- وما الذي يريدونه مني؟

- خذوا منه العصا، وبعد ذلك سنتصرف بأنفسنا - تدخلت الممرضة - المدبّرة في الكلام.

- اخرجي، أيتها المواطنة، لا تعرقلي القيام بعملية التحقيق - هدأها الشرطي. أقفل الباب، أزاح الكرسي إلى السرير، جلس.

- رجال الشرطة لم يكونوا قساة على هذا النحو في السجن، مثلهم - بدأ السجين بالتبرير.

يريدون أن ينقلوني إلى الطابق الثالث، لديهم هناك قسم للذين على وشك الموت.

- لأي سبب؟

- من الذي يعرف؟ هؤلاء الحريم...

(*) إذا كان الشخص مذنبا فإنه يخاطب مسؤول الشرطة بالرئيس المواطن.

- هؤلاء الحريم - ردد رئيس قسم الشرطة بتأمل

- لا أفهمهن.

صمتا.

نهض رئيس قسم الشرطة، خرج من الغرفة.

- إذن، أيتها المواطنات. لقد أجريت حديثا تربويا مع الشخص الذي تحت وصايتكم، وقد وعد بأن يصلح من نفسه وألا يخالف النظام العام بعد ذلك. وإذا اقترف شيئا خطيرا، سنصل، لا تشكّوا في ذلك، سنحرر محضرا وسنحمله المسؤولية بكل ما في القانون من صرامة.

رتب القبعة، نظر بعداوة إلى الخالات في الأردية البيضاء وذهب إلى المخرج .

أما الشيخ فإنه لزم فراشه بعض الوقت بعد السكتة الدماغية. لكنه في البداية أخذ في الجلوس على مهل، ثم وقف على قدميه. فإما أن حقن الممرضة الشفوق قد ساعدت، وإما أن التعطش الوحشي للحياة انتشله من العالم الآخر. وهذا كان يمشي في السكن الداخلي، يسحب رجله المشلولة، ويمسك العكازة بثقة في يده اليسري .

وإذا كان الشخص بريئا كان يخاطب مسؤول الشرطة بالرئيس الرفيق.

عكازة جيدة، ثقيلة، شيء ممتاز، متينة.

الآثمة

دار كبار السن. النهار يمر إلى الليل، الليل يتحول إلى النهار بسلاسة.

فصول السنة تمتزج، يمضي الوقت. لا شيء يحدث، لا شيء يُدهش. الوجوه نفسها، الأحاديث نفسها.

لكن أحيانا الواقع المعروف جديدا يختلج أحيانا، يثور ويعطي شيئا خارقا للعادة بالمرة، لا يدخل في المفاهيم البسيطة والمألوفة.

كانت تعيش دائما في السكن الداخلي، على ما يبدو، منذ يوم تأسيسه. متواضعة وهادئة، إنسان صغير في عالم كبير وجائر.

امرأة قصيرة. قامتها كانت لا تتجاوز قامة طفل في الخامسة من عمره. اليدان والرجلان كانت مشدودة بغير متانة مع المفاصل الهشة، لهذا السبب لم تكن تستطيع المشي. كانت ترقد ووجهها إلى الأسفل على عربة مسطحة منخفضة على كراسي تحميل، وتتدفع عن الأرضية برجليها، هكذا كانت تتحرك.

كانت هذه المرأة تعمل في ورشة الخدمات الطقوسية. كانت مثل هذه الورشة موجودة تابعة لدارنا الحزينة. عجائز السكن الداخلي كن يصنعن زينة التابوت، أكاليل الزهور الاصطناعية وبهرجانا(*) جنائزيا آخر تقريبا لكل أموات المدينة غير الكبيرة. كان من الممكن حجز أكاليل الزهور أيضا في الورشة التابعة للمقبرة، لكن، حسب الرأي العام، كانت أكاليل الزهور هناك

(*) خيوط أو أشرطة معدنية أو ورقية أو لدائنية لماعة تزين بها المنسوجات وشجرات الميلاد... إلخ.

أغلى، كانوا يعدونها كيفما كان، من دون احترام واجب للأشـياء، التي بمثل هذا المقدار رقيقة ومهمة.

كانت تعد عاما بعد عام من الورق الملون زهورا متقنة، وتشـبكها بإكليل زهور المقبرة - تعبير محترم للاهتمام المؤثر بالأموات.

لا أحد كان يؤذي المسكينة، موظفو السكن الداخلي لم يكونوا يلاحظون عربة النقل الخاصـة بها التي كانت تزحف ببطء في الممر، لم تكن تطلب المساعدة، كانت تصل بنفسها إلى المرحاض والمطعم. المدمنون العنيفون، الذين كانوا من وقت إلى آخر يرهبون كل قاطني مأوي العجزة، لم يكونوا يتجاسـرون على مسّ الكائن غير المحمي.

وهـكـذا كانت تعيـش. في النهـار كانـت تعـد الزهـور للأموات، وفي الأمسـيات كانت تحـيك فوط مـائدة مزركشـة بالدنتلا أو تطرز بالسـاتان. مـن يوم إلى يـوم، ومن عام إلى عام. عاشـت بصـورة اعتيادية. كيّفت بالتـدريج غرفة ليسـت كبيرة على مقاسـاتها المتواضـعة. المرتبة علـى الأرض، طـاولة منخفضـة، كرسـي صغـير، فـوط مائـدة مزركشـة بالدنتلا ووسادات مطرزة.

عاشـت طويلا، طويلا للغاية. العجوز تجـاوزت الأربعين بكثير. بدأت تعيش. قرر المسـؤولون بعد اجتماع دوري، أنه قد حان الأوان لنقلها إلى الطابق الثالث. إجراء منهجي اعتيادي.

وتيرة عمل طبيعية لجهاز منظم جيدا.

وسـيضعونها في الطابق الثالث على سرير عادي كبير في غرفة مع ثلاثة أشخاص على وشك الموت، ويتركونها لتموت ببطء.

سـيأخذون منها ثروتها الوحيدة - الحرية في أن تخدم نفسـها بنفسها.

عاشـت كل حياتها الطويلة بهدوء، لم تطلب أبدا أي شـيء من المسؤولين، وهنا فجأة أخذت بتسـجيل اسمها فجأة لمقابلة المدير. كانت تجلس في الطوابير لسـاعات وعيناهـا مغرورقتان بالدموع وعندما انتظرت حتى تحصل علـى حقها القانوني، كانت ترجو أن لا يخرجوها من الغرفة، توسلت بالسماح لها أن تعيش بقية عمرها في وضع مألوف لديها. كانوا يسـتمعون إليهـا على الدوام، وكانوا يرفضـون على الـدوام، ولاحقا أخذوا تمامـا بطردها من الطابور لمقابلة المدير.

قبـل اليوم المحدد لنقلهـا ليلا انتحرت شـنقا على مقبض الباب. آثمة.

الضابط

جاءوا بشـــخص جديد إلى دار كبار الســـن. رجل ضخم من دون رجلين وكان جالسا على عربة نقل منخفضة. تلفت حوله بثقة ودخل إلى المكان على مهل. اهتدى على الفور، من دون تلقين.

تجول بلا عجلة في كل دارنا ذات الثلاثة طوابق، مكانا إثر مكان. بدأ من المطعم. كان وقت الغداء.

ألقى نظرة على نوعية الطعام، ابتسم بلا سرور، لم يأكل.

صعد بالمصعد إلى الطابق الثالث - طابق المحكوم عليهم بالموت، القسم الخاص بالذين هم على وشك الموت.

كان ينظـــر في كل غرفـــة دون ذعر ودون تململ، لـــم يغلق أنفه بنفور، لم يعـــرض عن الحقيقة. رأى الشـــيوخ العاجزين، الراقدين على الأســـرّة بلا حراك، ســـمع الأنين والصرخات. عاد قبل المساء إلى الغرفة المخصصة له، استلقى على السرير.

غرفة جيدة في الطابق الثاني. مع جار واحد.

على الباب لوحة صغيرة جميلة مكتوب عليها «هنا يعيش محارب قديم من الحرب الوطنية العظمى».

ظروف حياتية طبيعية. يمكن ارتياد المطعم ثلاث مرات في اليوم، وأكل ما يقدمونه من طعام، مشـــاهدة التلفزيون معا في الأمسيات. جزء من المعاش المقرر ســـيغطي بربح زائد الاحتياجات البســـيطة لشـــخص متقدم في السن - مثل السجائر، الشاي، البسكويت. وإذا أراد، فلا أحد ولا شيء سيمنعه من شراء الشراب وشربه مع جاره،

من تذكر الماضي، من أن يحـــدّث بعضهم بعضا عما كانوا عليه في السابق، كيف حاربوا وانتصروا، كانوا ينتصرون دائما.

من الممكن مادامت قوة في اليدين بقيت لدفع عربة النقل الخاصة إلى المرحاض، مادامت اليد تمسك بالملعقة، مادامت هناك كفاية في العمر، الكفاح يوميا من أجل الحق في اعتبار نفسه إنسانا.

في ذلك المســاء لم يكن عندهما شــراب. لقد صادف أن الجار دمث الخلق. والذي قد ســلّم بالحياة الحكومية، هذا الشيخ الهادئ كان يسمع حديث الرجل الجديد كل المساء ونصف الليل.

كان عُديم الرجلين يصف بالتفصيل كل حياته بصوت قيادي واضح. لكنه إذا ما بدأ بالحديث عن أي شيء، كان كل شيء يتلخص في شيء واحد - كان ضابط مخابرات للمناطق البعيدة وقت الحرب.

ضباط المخابــرات للمناطق البعيدة. مُجرّبون، مقاتلون جريئون، هم النخبة.

كانوا يشقون طريقهم عبر حقول الألغام إلى أرض العدو، وينسلّون إلى خلف خطوط العدو العميقة.

لم يعودوا كلهم. أولئك، الذين كانوا يعودون، كانوا يتغلغلون خلف خطــوط العدو مرة تلو مرة. في وقت الحرب كما في وقت الحرب. لم يكونوا يتهربون من الموت، كانوا يذهبون لأداء المهمات،

يقومون بما كانوا يُؤمرون به. الموت ليس أســوأ شــيء يمكن أن يحدث للإنسان. كانوا يخافون الأسر - العار، الإذلال، العجز.

لم يكن هناك أسرى وجرحى في المخابرات للمناطق البعيدة.

الشــخص الذي كان يبطّئ حركة المجموعــة، كان عليه أن يقتل نفسه رميا بالرصاص حسب التعليمات.

تعليمات صحيحة. موت شخص واحد أفضل من موت الكل.

شــخص واحد كان يقتل نفســه، كان الآخرون يســيرون أبعد - لإنجاز المهمة وهي ضرب العدو.

الثــأر لبلدهم، للأصدقاء الذين لقــوا مصرعهم، لأولئك الذين غادروا الحياة طواعية في سبيل المصلحة العامة.

إذا كانت الإصابة خطيرة إلى درجة أن الجندي لم يكن يستطيع أن يقتل نفســه بنفســه رميا بالرصاص، كان دائمــا هناك صديق بجواره، مجبر على المســاعدة. صديق حقيقــي، ليس ثرثارا، ليس نديما أو ببساطة جار في العمارة نفسها.

ذلــك، الــذي لا يخون، يقتســم آخــر قطعة خبز مــع صديقه، والرصاصة قبل الأخيرة أيضا.

مازال الضابط يحكي ويحكي. عن، كيف صادف لغما فانفجر. كيف كان يرجو صديقــه: «اقتلني رميا بالرصاص». وكيف وقع له حادث مشــؤوم ليــس بعيدا عن الحدود، حملــه صديقه إلى جماعته لمســافة عشرة كيلو مترات - مســافة غير بعيدة خلف خطــوط العدو. وكيــف كان يخــاف في كل حــياته أن يكون عالة على عاتق شــخــص ما، كان يعــمل في جــماعة تعاونية، يخيط ألعابا ناعمة.

لقد تزوج، ربى الأطفال. الأطفال طيبون، لكنهم ليســوا بحاجة إلى شيخ بلا رجلين.

وقبيل الصباح نشر الضابط حلقه بمدية وكان ينشر لمدة طويلة. ســكين صغير مثلّم. ولم يســمع جاره المسكين جاره شيئا من خلال النوم العجائزي الخفيف. لا صوت ولا أنين.

مات ضابــط المخابرات للمناطق البعيــدة. مات ميتة صحيحة، حســب النظام. لكن لــم يكن بجانبــه صديق حقيقــي، الذي كان ســيدخن معه آخر سيجارة، يعطيه المســدس ويبتعد جانبا بلباقة، حتى لا يزعجه. لم يكن بجانبه صديق. لم يكن. يا للأسف.

المعيلة

العجائــز كن يمتن في الربيع. كن يمتن في أي وقت من الســنة، باستمرار، لكن أكثرهن كن يمتن في الربيع على وجه الخصوص. في الربيــع كان الجو أدفأ في العنابر، في الربيع كانوا يفتحون الأبواب والنوافذ، حتى يدخل الهواء العليل إلى عالم دار كبار الســن العفن. كانت الحياة تتحسن في الربيع. لكنهن، بعد تشبثهن العنيد بالحياة في كل الشــتاء، كن ينتظرن الربيع فقط حتى يتراخي، يستســلمن لإرادة الطبيعــة ويمــتن في هدوء. كان عدد الشــيوخ في الســكن الداخلي أقل بكثير. الشيوخ كانوا يموتون، غير آخذين بعين الاعتبار التغيرات الفصلية.

لم يكونوا يســعون للعيش حتى الربيع. كانوا يغادرون إلى العالم الآخر من دون مقاومة، إذ حتى الحياة لم تتســاهل معهم ولم تقدم لهم حتى قنينة شراب أو مقبلات طيبة.

أجلس في فناء الســكن الداخلي. أجلس وحدي. لا أشعر بالملل، لا أشعر بالملل إطلاقا.

أنظــر إلى الربيع. أنا شــاب، أنا واثق بأنني ســأعيش في هذه الدنيا لسنوات عدة.

الربيع ليس له مثل هذه الأهمية بالنســبة إليّ، كما هو بالنســبة إلى المسنين.

يظهر شــخص عند الباب. عجوز هرمة للغاية تسير، متكئة على مســند الكرسي. ترمي بحركة حادة كل جسمها، تنقل للحظة وزنها

إلى الرجلين، تدفع الكرسي بيديها إلى الأمام لبضعة سنتيمترات. ثم، وهي تتكئ بصعوبة على الكرسي، تسحب رجليها إليه ببطء.

بعد أن تلفتت حولها حيث لم تلاحظ في الفناء أحدا تعرفه، تتجه بثقة إلى ناحيتي ها هو متحدث آخر، قصة أخرى.

تقترب العجوز مني، تضع الكرسي مقابل عربتي، تجلس ببطء وبصعوبة.

كانت تشتغل في الكولخوز(*) طوال الحرب. كانت تعمل من الصباح إلى المساء. لم يكونوا يدفعون لهم نقودا. لكن أي نقود؟ الهدف واحد: كل شيء للجبهة. كل شيء للنصر.

كانوا يعطون الجريش مقابل أيام العمل(**). كانوا يطهون من الجريش عصيدة. فقط عصيدة، لا شيء أكثر. لم يكن هناك حتى خبز.

أصبح الوضع أسهل بعد الحرب - أتى الزوج، حيا وسليما. ذهبت وزوجها إلى المدينة. كان زوجها سائقا. ذهبت إلى معمل الخياطة. أدمن زوجها الشراب بسرعة في المدينة ومات. المرأة كانت تتذكر الحياة في المدينة كأحسن سنوات عمرها .

كانت تعمل لمدة ثماني ساعات في اليوم وبعد ذلك تكون حرة.

الغداء كل يوم في المعمل: الطبق الأول، الطبق الثاني وعصير الكوكتيل. شيء طيب.

كان كل العاملين في المعمل بعد نهاية العمل يذهبون لعمل حُفر لقواعد مبنى جديد، تطوعا ومجانا.

(*) مزرعة تعاونية اشتراكية.

(**) وحدة حسابية للعمل في الكولخوزات.

كان هذا يُسمى «النداء الكومسومولي». كانت تعد بفخر المباني **الجديدة في** المدينة، حيث توجد مساهمتها أيضا.

كانوا يعدون حُفر قواعد المبنى حتى ساعة متأخرة، كانوا يشغّلون في الشتاء المصابيح الكاشفة في أراضي البناء. وكل هذا كان تطوعا وبسرور. كانت تجيء مساء إلى البيت، تأكل شيئا ما وتسقط على السرير. في الصباح - إلى المعمل من جديد. أما في أيام الأحد فكانت تذهب إلى السينما. كانوا يعيشون جيدا.

أحيلت إلى المعاش في الستين من عمرها. بصرها ضعيف، لا يصلح للعمل في معمل خياطة.

بعد نصف عام وقعت من سكتة دماغية. نقلها جيرانها إلى دار كبار السن. اعتقدت أن هذا كل شيء، النهاية. في الوقت نفسه طلبت جارتها في العنبر أن تشرب. قامت ببطء، ساعدت الجارة، شربت بنفسها، كأن الوضع تحّسن. نظرت حولها في دار كبار السن. كل شيء جيد، ثمة سقف فوق رأسها، وطعام.

شيء واحد سيئ - كل شيء جيد مادامت الرجلان تحملانك. إذا أصبحت مقعدا، لن يقترب منك أحد. سيضعون على الخزانة الصغيرة قرب السرير طبق العصيدة، عش كيفما شئت أصرخ، لا تصرخ - لن يقترب منك أحد. لقد خافت.

اليدان تعودتا على العمل، وكانتا تطلبان العمل. كانت تطوف في الغرف، وتطعم المرضى المقعدين بالملعقة.

كانت تبدأ طوافها اليومي بعد الإفطار. ما كادت تقدم لهم الإفطار - حتى يحين وقت الغداء، وبعد ذلك - وقت العشاء. من يوم إلى يوم، من الإفطار حتى العشاء. لم تكن تستطيع إطعام الكل.

قررت أنها ستطعم فقط الأضعف، أولئك الذين على حافة القبر. كانت تعطي للأقوى منهم قطعة خبز بقيت من الغداء في أيديهم. الخبز في اليد - فلن تموت إذن.

في الغرف - رائحة نتنة، رائحة تعفن وموت.

العجائز كن يطلبن «القصرية» مرارا، بعضهن كان يطلب تغيير البياضات.

كن يطلبن إعطاءهن «القصرية» أكثر من الطعام، أكثر من الماء.

لم تكن توافق على ذلك. قررت مرة وإلى الأبد، أنها سوف تطعمهن فقط.

كانت تلقي نظرة على الغرفة، تسأل، هل من الضرورة إطعامهن. كانت ردة الفعل على هذا السؤال مختلفة.

البعض كان يجيب بكبرياء بصوت حديدي، أن في غرفتهم الكل من غير المقعدين، كانوا يصرخون على المعيلة، كانوا يشتمونها بكلمات سيئة.

كان الفأل على هذا النحو: إذا جاءت المعيلة إلى الغرفة - انتظر الموت. لم تكن تستاء، تواصل الطواف من غرفة إلى غرفة.

كان أولئك أسوأ الكل، الذين كانوا يحتاجون فعلا إلى المساعدة. أولئك، الذين فيما مضى، كانوا في قواهم، كانوا يصرخون على المعيلة، يطردونها ويشتمونها، وجدوا أنفسهم في حالة عاجزة، كانوا يستغيثون بصوت أعلى من الكل، يتوسلون أن يطعموهم، كانوا يغضبون منها، عندما لم تكن تستطيع إحضار وجبة الغداء. كانوا بسرعة يبلعون الأكل ملعقة تلو ملعقة، وينظرون خلسة إلى الوجبة،هل ستخطف المعيلة قطعة لنفسها أيضا؟

مثل هؤلاء كانوا يرقدون طويلا، في القذارة، كانوا يتعفنون حتى النواقب، القرحات.

لكنهم عاشـوا. عاشـوا لسنوات، عاشـوا وقد فقدوا العقل، لم يتعرفوا إلى المحسـنة إليهم، لكنهم كانوا يفتحون أفواههم بإصرار لملاقاة ملعقة العصيدة، يبلعون بنهـم، ويحملقون إلى الفراغ بنظرة لا معنى لها.

قـد أقبل الغسـق. حتى أننا لـم نلاحظ، كيـف انقضى نصف اليوم.

- كم سنة، أيتها العجوز، وأنتم تطعمون الناس على هذا النحو؟

- اثنان وثلاثون عاما، سـتصبح ثلاثة وثلاثين في عيد الفصح. لقد أحصيت كل شيء. كل شيء.

- أمّا أنتِ فبطلة - أقول بإعجاب - اثنان وثلاثون عاما ! تخدمين الناس بنزاهة !

- بنزاهة؟

اهتزت المعيلة وهي تضحك ضحكة ناعمة.

عملت إشـارة الصليب ثلاث مرات بسـرعة، وبـدأت بالصلاة همسا.

- ومـع ذلك فأنتم فتية أغبياء. لا تفهمون شـيئا، لا في الحياة ولا في الموت.

نظـرت إليّ بصرامـة بعينين صغيرتين شـريرتين. عاينت يدي بانتباه.

- هل تأكل بنفسك؟

- بنفسي.

أخذت نفسا. كان من الواضح، أنها كانت ترغب للغاية في أن تتقاسم مع أحد ما سرّها.

أسرعت في الكلام بنفس واحدة، بوضوح وبحذر ومن غير أن تنظر إلى عيني.

- تقول، بنزاهة؟ هكذا كان الأمر. عرضوا عليّ النقود. ليس كل الراقدين هنا أيتاما. كان أقاربهم يفدون، يدسّون في يدي نقودهم النجسة. لكنني لم أكن آخذها. إذا وضعوها في جيبي خلسة، كنت أعطيها كلها لكبار السن، حتى آخر كوبيك. كنت أشتري لأولئك الذين كانوا لا يعقلون، الحلويات وأطعمهم إياها حتى آخر قطعة. لم آخذ نقودهم، ولا أحتاج إلى أي شكر منهم.

لقد قطعت عهدا. عندما قدمت إلى هنا، كنت أطعمهم في البداية، بسبب حماقتي، هكذا ببساطة.

وأتيت مرة لأطعم إحداهن، وكانت تقول لي، أعطيني «القصرية»! أجبتها، إنني لا أناول «القصريات»، أطعم فقط. حسنا، هي تقول، أطعميني.

جمعت الخبز بكامل الفم، مضغته وبصقت في وجهي.

لطخت كل وجهي بالبصاق.

والآن، هي تقول، اربطي المنديل تحت ذقني بشدة حتى لا ينفتح فمي، عندما أموت. لن آكل أكثر.

كنت أحضر إليها كل صباح، من المحتمل أن تغير رأيها، ولكنها كانت تنظر بصرامة إلى هذا الحد فحسب وتعرض عني.

كانت راقدة لمدة أسبوعين، تحتضر. وعندئذ قطعت عهدا، أن أطعم الكل إذا استطعت. الكثيرون امتنعوا عن الأكل بعدها،

أنا تعودت. أتذكر تلك الأولى فقط. وقطعت عهدا، أن أموت بهدوء، من دون أن أتعذب. أنا ضعيفة، وقواي لا تكفيني لكي أنفث الخبز.

أمّا أن أســتلقي وأقضي حاجتي تحتي - فهذا شيء مريع. خفت بشدة حينئذ. وأنت تقول - بنزاهة.

بطاقة مرور

دار كبار السـن. هي ليست مسكنا عاما وليست مستشفى. هي سور متين من ألواح خرسانية مسلحة وبوابة فولاذية. تقع الدار على أطراف المدينة.

المبنى المجاور لنا إصلاحية ذات نظام عام(*) للمذنبين. هناك كل شيء واضح، هناك سجناء، أسلاك شائكة. الوضع جيد بالنسبة إلى السجناء، يقضون مدة سجنهم ويخرجون حيث الحرية. نحن لا نأمل شيئا. مؤسسة من الطراز المغلق.

ممنوع الدخول للغرباء.

الساكنون لا يملكون الحق في الخروج فيما وراء بوابة المؤسسة من دون إذن المدير الخطّي. إذن خطّي اعتيادي، بتوقيع وختم. يحرس بوابة الدخول بإتقان خفير سابق من المنطقة المجاورة. هو كبير في السن للعمل في الهيئات الحكومية، لكنه يصلح بعد لبوابتنا. اجلس في مكانك، افتح البوابة للمسؤولين. العمل بسيط، مألوف، وعلاوة على ذلك تعتبر زيادة جيدة على المعاش.

الذي كان أكثر صحة وأكثر رشاقة، كان يتسلق السور أو كان يحفر حُفرة تحته. أمّا بالنسبة إلينا، المعوقين في العربات، كان هذا الحارس البائس شريرا ويقظا بالأصالة.

شاب - معوق طلب سيارة الأجرة. اتفق سلفا مع أصدقائه، حتى يركبوه في السيارة. تزود ببطاقة مرور قبل السفر بثلاثة

(*) أي سجن للمذنبين العاديين وليس الخطرين مثل القتلة... إلخ.

أيام. كل شيء على ما يرام، كل شيء مخطط له، هنا سيركبونه في السيارة، هناك سيلاقونه. أصبح في السيارة، العربة التي تطوى في صندوق السيارة.

اقتربوا من البوابة. السائق أطلق إشارة التحذير الصوتية. خرج على مهل من كشك الحارس شيخ قصير بعينين شريرتين لاذعتين.

- من في السيارة؟

السائق لم يفهم السؤال.

- شخص.

- هل توجد بطاقة مرور؟

السائق المرتبك يأخذ من المعوق الورقة، يناولها الحارس.

الحارس بعين مرهفة يطلع على الوثيقة بانتباه.

- كل شـــيء على ما يرام، دعه يمر. لقد عرفته، يتســكع مرارا بالقــرب من البوابة. لكنه في المرة الماضية كان في العربة ومن دون بطاقة مرور.

- لكن الآن عنده بطاقة مرور؟ افتح البوابة.

- أنتم لم تفهموني. هنا مكتوب «بطاقة مرور للخروج مشــيا من منطقة الدار - السكن الداخلي». هذه وثيقة. يجب أن أتبعها بدقة. يريد أن يخرج فليخـــرج إذن، وإذا كان لا يريد فلا حاجة إلى ذلك. لن يغادر منطقة السكن الداخلي وهو في السيارة.

ضجر السائق. رجل لم يعد شابا، لم يتعود على الخسارة.

يرجع بالسيارة إلى مبنى السكن الداخلي، يدخل إلى هناك.

بعد نصف ســاعة مــن الإيضاحات مع مدير الســكن الداخلي، كانــت فــي يديه بطاقــة المرور نفســها، لكنها مع حاشــية بالحبر

علــى الهامش: «وللخروج راكبا». في الزاوية أضيف ختم المؤسســة الدائري. المعوق مسرور. في ذلك اليوم، كان مزاج المدير جيدا على الأرجح. كان من الضروري - حسب التعليمات - إلغاء بطاقة المرور، كتابة مذكرة لاســتخراج بطاقة مــرور جديدة والانتظار يومين لحل مســألة بهذا المقدار من الصعوبة. السيارة تقترب من البوابة للمرة الثانيــة. الحارس يتأمل بانتباه الوثيقة المعدّلة، يرجعها إلى ســائق سيارة الأجرة، وبلا رغبة يذهب لفتح البوابة.

كانوا صامتين لعدة دقائق في الســيارة وهي تســير بهم. فجأة يوقف السائق السيارة. ويداه تضغطان بتماسك على عجلة القيادة، يستنشق الهواء. من غير أن ينظر إلى المسافر، وبتوتر، يقول بغضب تقريبا في الهواء الذي أمامه:

- إذن، يــا فتى، لا تســتأمني، لن آخذ منــك نقودا. وليس لأنك معوق. في شــبابي قضيت في الســجن ثلاثة أعوام، وحفظت هذا مدى الحياة. أكره رجال الشرطة منذ ذلك الوقت.

يفتح العداد، يضغط على دواسة البنزين. تسير السيارة بأقصى سرعة، ليغربوا عن دار كبار السن، عن منطقة السجناء، عن الحارس البذيء. الحرية شيء جيد.

الأحمق

في موقف الباص. أنا وزوجتي نغادر إلى مكان ما.

ننتظر الباص.

يصـل الباص أخيرا، خلف المقود - شـاب يافـع يرتدي نظارة سـوداء دارجة. تأخذني «آلاّ» على يديهـا، تضع رجلها اليمنى على عتبة الباص، تنقل إليها الوزن. وفي الوقت نفسـه يبدأ السائق في التحرك وهو يبتسـم في اتجاهنا. آلاّ تسـتدير من الدفعة العنيفة، تقرفص نصف استدارة وأنا في حجرها. لم تقع، دروس الجودو لم تذهب هدرا. تقوم ببساطة وتجلسني مرة أخرى في العربة.

رجل سـكران في الموقف لا يسـتطيع أن يتوقـف عن الضحك. يضحك طويلا وبفرح، بعد ذلك يقترب منا. آلاّ تبتعد، لا تفهم، كيف أستطيع التحدث مع مثل هؤلاء الناس؟

- هو أحمق - يقول - أحمق.

- لماذا؟

- ذلك لأن عندك عربة موجودة، تستطيع أن ترى الشمس، هذه الطيور على الأسفلت، وكيف ستكون حالته بعد وقوع حادث، لا أحد يعرف، مهنته خطرة.

الآن فهمت. أبتسم. فعلا - أحمق.

المادة اللدنة

من اليسير تشكيل الأب لإعادة اللدنة، أسهل من تشكيل الفطر. من الضروري أن يتم ترقيق كرتين إلى سـطح ناعم بسمك الفطائر المحلاة نفسه.

* * *

عندما كنت صغيرا، كنا نشكّل من المادة اللدنة. الحاضنة السمينة وزعـت علينا قرصين من المـادة اللدنة لكل واحد منا. كان يجب أن نرقـق قرصا واحدا إلى أنبوب طويـل، والآخر - إلى قرص رقيق. إذا وضعنا الأنبوب مع القرص الرقيق، سنحصل على فطر. مسألة سهلة للأطفال الناشئين.

أضـع يدي على المادة اللدنة. أنـزع قرصا عن الآخر. أحاول أن أرقق المـادة اللدنة على الطاولة. بلا جـدوى. أدحرج القرص على الطاولـة، الذي لا يصبح أرق ولا أسـمك. أمسـك بالقرص التالي - النتيجة نفسها.

الأطفال الآخرون يتدبّرون المسألة بشكل مختلف. ينتج الفطر عند البعض مستقيما وجميلا، وعند البعض الآخر - صغيرا وملتويا.

الحاضنة تقترب من الكل، تنصح كل واحد بشيء ما، ترتب لبعض الفطر الرؤوس، للبعض الآخر - القوائم. تقترب الحاضنة مني.

- ماذا نتج عندك؟ - تسأل بلطف.

أضـع قرصا علـى قرص. في رأيـي، أن التصميم الآن مع ذلك شبيه أكثر قليلا بالفطر.

- وما هذا؟ وما الذي شكلته هنا؟

تأخـذ الحاضنة مادتي اللدنة، تهرسـها بحركات سـريعة لبقة بأصابعها السليمة.

- فهمت الآن، كيف يجب أن تشكل؟

أومئ برأسي. الآن فهمت.

- أمّا الآن، يا أطفال، فلننظر من نتج عنده الفطر الأجمل.

الفطر الأجمل نتج عند رُوبين.

أعايـن الطاولة. الفطـر، الماثل أمامي، الأكثر اسـتقامة والأدق فعلا. بالنسبة إليّ لا فرق عندي، فهذا الفطر ليس فطري.

* * *

ابنتي تشـكل أباها. من اليسير تشـكيل الأب، أسهل من تشكيل الفطـر. من الضروري ترقيق قرصين مسـتديرين من المادة اللدنة. قرصان متساويان، عجلتان لعربة المعوقين.

* * *

أمّا الآن، يا أطفال، فلننظر من نتج عنده الفطر الأجمل.

أبدا

أبــدا، كلمة رهيبــة. الكلمة الأكثر إخافة مــن كل كلمات النطق الإنساني.

أبدا. هذه الكلمة تُقارن فقط بكلمة «الموت». الموت - كلمة واحدة كبيرة «أبدا». «أبدا» أبدية، الموت ينبذ كل الآمال والإمكانات. لا لأي «ربما» أو «أمّا إذا». أبدا.

لن أتســلق الإفرســت أبدا. لن تكون هنــاك تمارين طويلة، فحوصــات طبية، تنقــلات، فنادق. لن ألعــن الطقس، الممرات الزلقــة والحيود العمودية. لن تكون هناك أهداف فاصلة، جبال كبيرة وصغيرة، لن يكون هناك شيء. ربما، إذا وُفقت، إذا وُفقت للغاية، سأرى التبت يوما ما.

إذا وُفقــت جدا جدا، فإنهم ســيلقونني مــن الهيلوكبتر إلى أول نقطة تجمع، إلى أول وآخر «لا يجوز».

سأرى الجبال، متسلقي الجبال المجانين، الذين يتحدون أنفسهم والطبيعة. بعد عودتهم، إذا وفقوا وعادوا من الجبال من دون خسائر، ســيحكون لي بســرور وبحيرة قليلا كيف كان كل شيء هناك، فيما وراء حدود «أبدا». ســتكون علاقتهم بي طيبة، أنا أعرف، أنا أيضا مجنون مثلهم. كل شــيء سيكون جيدا للغاية. لكن لن أصعد بنفسي إلى القمة أبدا.

لــن أهبط أبدا وأنا في غواصة الأعماق إلــى قاع ماريان(*). لن أرى، كم كان المكان جميلا هناك، في قاع البحر. كل ما ســيبقى لي

(*) يقع في الجزء الغربي من المحيط الهادي.

هو تصوير الفيديو، إثبات وثائقي على مثابرة وبطولة أحد ما.

ولن يأخذوني إلى الفضـــاء الخارجي. لا أرغب كثيرا في التقيؤ بسبب الدوخة وأنا أســـبح في علبة معدنية ضيقة. لا أرغب بالمرة، لكن يعز عليّ. ثمة أحد يحلق هناك، فوق رأســـي، أمّا بالنســـبة إليّ فلا يجوز.

لن أســـتطيع أبدا عبور المانش ســـباحة. ولن يحصل أيضا عبور المحيط الأطلسي على قطعة من الخشب. جمال الصحاري وبطاريق القطب الجنوبي ستكون في غنى عن اهتمامي.

لن أســـتطيع الخروج إلى البحر في ســـفينة صيد الأسماك، لن أرى الحوت العائم، الحوت الهادئ، الواثق من استثنائيته. سيجلبون إليّ الســـمك رأسا إلى البيت، سيسلمونه في أحسن حالة، مقطوعا وجاهزا للاستعمال. معلبات، معلبات، معلبات أبدية.

ألمـــس لوحة تحكم العربة الكهربائية، أقتـــرب من الطاولة. آخذ بأســـناني قشـــة بلاســـتيك، أضعها في القدح. فليكن، معلبات إذن معلبات.

أشرب على مهل النبيذ الأحمر.

أفتح التلفزيون بزر على لوحة التحكم. أغلق الصوت. في إحدى القنوات - بث مباشـــر من عيد الشـــباب. الأشخاص في التلفزيون سعداء، يغنون ويرقصون.

الكاميرا تكبر الصورة. ذلك الفتى كثير الوشـــم بقرط في أذنه، أنا واثـــق، إنه يحاول أيضا الهروب من «أبدا». لكن هذا لا يســـهل عليّ الأمر.

الصديق

كنا مع الأصدقاء نريد الوصول إلى المدينة من الضاحية. لم تكن هناك «باصات»، كانت الحرارة رهيبة. كان من العبث إيقاف سـيارة عابـرة. ثلاثة فتيان أصحاء إضافة إلى معوق في العربة - لكن من سيأخذنا؟

حظ مفاجئ - باص عسكري. لم يكن هناك خيار - يجب محاولة ركوب «الباص»، الفتيان يمسكون بي وبالعربة، يحاولون الجدال مع السائق. السائق يردد شيئا ما عن «لا يجوز» و«النظام».

وفي الوقت نفسه يندفع من عمق «الباص» عسكري إلى السائق وهو يصرخ «يا صديق!».

هو سكران للغاية ومغتاظ. يتجادلان لمدة قصيرة ونغادر.

يتنـازل لنا المجندون الجدد عـن المكان. أنا نصف راقد وبصورة غير مريحة على المقعد الضيق، أشعر بالألم.

يقتـرب «الصديق». بالكاد يقف على رجليه، سـترته الرسـمية المفتوحة ذات صف واحد من الأزرار، تحت السـترة قميص داخلي مخطط يلبسه البحارة.

- أنت من أفغان(*)؟

- كلا.

- هـذا ليس مهما. قبل أفغـان لم أكن أعرف، من هم المعوقون. وبعد ذلـك بدأ الأصدقاء يقدمون مـن دون رجلين، من دون يدين،

(*) المقصود الجنود السوفييت الذين حاربوا في أفغانستان.

عميان. الكثير منهم لم يصمد، تحطم. وكيف الحال معك؟

- كل شيء طبيعي: زوجة وعمل

- اصمد، وعش.

نصل إلى المدينة. يخرجونني من «الباص». يصرخ بشـــيء ما من خلال الزجاج.

أنا أذكر كل شيء. أذكر قميصك الداخلي المخطط، أذكر عينيك المجنونتين.

أنا أذكرك، يا صديق.

أنا صامد.

I GO

اللغــة الإنجـليزيــة، لغـة التخـاطــب ما بين الشــعوب، لغة المفاوضـــات العمليـــة. من الممكـــن ترجمة كل شــــيء تقريبا إلى الروسية. من شــعر شكسبير إلى تعليمات اســتخدام الثلاجة. تقريبا كل شيء.

* * *

في يدي لوحة التحكم لعربة المعوقين الأمريكية. آلة مطيعة تنقل جسمي المجرد من الحركة في شارع بمدينة أمريكية صغيرة.

أجتاز الإشارة الحمراء. وهذا ليس غريبا، إذ إنني أعبر أول شارع في حياتي. العربة غير مطيعة بعض الشيء لأوامر يديّ المشلولة.

السيارات واقفة.

يطل سائق مسرور من السيارة الواقفة في الصف الأيسر الأخير، يلوّح بيده ويصرخ بشيء ما مشجع.

يقترب رجل البوليس. يخمن وفقا لمظهري المدهش، لماذا خالفت القانون؟

- هل كل شيء عندكم على ما يرام؟

- نعم.

- أنتم ســلكتم ســلوكا صحيحا للغاية عندما قررتم الخروج إلى الشارع. حظا سعيدا لكم!

* * *

امرأة في عربة المعوقين تمر بجانبي بسرعة كبيرة.

في فمها خرطوم قناع التنفس. مسند العربة ملقى في وضع أفقي حيث إنهـــا تنظر إلى الطريق من خلال مرآة مثبتة على العربة،على جانب العربة كتابة ساطعة بحروف كبيرة: «أنا أحب الحياة».

* * *

مطعم صيني صغير. أبواب ضيقة، أربع طاولات.

النادل يجري.

- أنا آسف جدا، جدا. نحن نقدم اعتذارا رسميا.

للأسف، عربتكم لن تدخل من هذه الأبواب. من فضلكم، اعملوا معروفا، يمكنكم الدخول إلى القاعة المجاورة. لن تخســـروا شـــيئا، أؤكد لكم، قائمة الطعام نفســـها، ديكور القاعة نفســـه، نفس رئيس الطهاة. عندنا شهادة كتابية، يمكنكم الاطلاع عليها.

ليس لدينا تمييز.

أحـــاول تهدئته وأنا في حيرة، أؤكد له أنه لا يصعب عليّ مطلقا الذهاب إلى القاعة المجاورة. يرافقني إلى مدخل القاعة الأخرى.

هـــذه القاعة أكبر بقليل جدا. النـــادل يرافقني إلى الطاولة غير المحجوزة، يزيح الكراسي من أمامي.

بعـــض رواد المطعم يبعدون أرجلهم عن الممر، البعض الآخر لا يعير أي اهتمام لعربتي. عندما تصطدم عجلات العربة برجلي شـــخص ما يصرخ. هذا بالتأكيد لأن وزن العربة ليس قليلا. نتبادل الاعتذارات.

النادل ينظر إليّ بدهشة.

- لماذا تعتذرون طوال الوقت؟ لديكم الحق نفســـه للأكل في هذا المطعم، مثلهم.

* * *

فتاة أمريكية في عربة المعوقين تُريني بفخر «ميكروباص» مع رافعة، وتحكي أن كل حظائر سيارات الأجرة في أمريكا مجهزة بمثل هذه «الميكروباصات».

- وهل كان من المستحيل إعادة تجهيز سيارات الركاب العادية لأجل المعوقين؟ كان من الممكن أن يكون هذا أرخص - أسألها.

الفتاة تنظر إليّ بحيرة وارتباك.

- لكن من الممكن نقل شخص واحد فقط في سيارة الركاب المعاد تجهيزها!

وإذا بشاب مع فتاة. هل يجب عليهما، في اعتقادك، الركوب في سيارات مختلفة؟

* * *

يمكن ترجمة كل شيء إلى الروسية تقريبا، من شعر شكسبير إلى تعليمات استخدام الثلاجة. تقريبا كل شيء.

أستطيع التحدث طويلا عن أمريكا. أستطيع التحدث بلا نهاية عن عربات المعوقين، المصاعد «الناطقة»، الطرق المستوية، المنحدرات، «الميكروباصات» مع الرافعات. عن المبرمجين العميان، العلماء المشلولين، عن كيف كنت أبكي عندما قالوا لي إنه يجب عليّ العودة إلى روسيا، وسأضطر إلى ترك العربة.

لكن الشعور الذي أحسست به، عندما حركت لأول مرة أعجوبة التكنولوجيا الأمريكية من مكانها، يعبر عنه أحسن من أي شيء آخر بجملة إنجليزية قصيرة وذات معنى: «I GO». وهذه الجملة لا تترجم إلى الروسية.

الوطن

أدخل أنا وكاتيا إلى متجر صغير لشــراء مواد غذائية. كاتيا تمر إلــى داخل المتجر وأنا أبقى عند المدخل. كل الشــيكات الســياحية مكتوبة باسم كاتيا، لأن من الصعب عليّ التوقيع.

أستطيع بصعوبة الإمساك بالقلم، وتوقيعي لم يكن ليوحي بالثقة على حد سواء.

كاتيا تختار المواد الغذائية وتقترب من البائع حتى تدفع الحساب. عربي مســنّ يقف وراء منضدة المتجــر. يبرهن بحماس إلى حد ما لكاتيا، يحرك يديه بشدة.

كاتيا لا تتكلم الإنجليزية، سيكون عليّ التفاهم معه.

ألمس لوحة التحكم في عربتي، أقترب من منضدة المتجر.

كاتيا تبتعد.

- ما الأمر؟

- لا أســتطيع أن أقبل شــيككم. أقبل الشــيكات التــي قيمتها الاســمية ليســت أكثر من عشــرة دولارات، أمّا أنتم فقدمتم شيكا بخمسين دولارا.

أنا في أمريكا أقضي أسبوعين وأنا هادئ.

ألمــس لوحة التحكم في العربة مرة أخرى. مســند العربة يرتفع بشكل رأسي تقريبا. أقترب جدا من منضدة المتجر.

- مفهوم. أنــتم تريدون القــول إن الشــيك مزوّر. انظــروا إليّ. أنتم تظــنون أنني قــادر على تــزوير الشــيك؟ هل أشــبه فــنانا؟

هل أشبه نصابا؟ انظروا إلى العربة. هل تعلمون، كم تكلف مثل هذه العربة؟ لقد اشــتريت منكم المواد الغذائية بالأمس، اشــتريتها أول أمس، أشــتريها اليوم وآمل أن أشتريها في الغد. هذه أمريكا. أنتم تبيعون، أنا أشتري.

واحدة من اثنتين. إذن الشــيك أصلي، ستبيعونني البضاعة. إذن الشيك مزور وأنا الذي رسمته بنفسي، استدعوا الشرطة.

ينظر إليّ باحترام. مثل هذه الطريقة في التعامل ترضيه بصورة واضحة.

- حسنا. سأقبل شيككم. هل أنت فلسطيني؟

- كلا.. إسباني.

- من إسبانيا؟

- من روسيا.

- متى ستذهب إلى الوطن؟

- بعد ثلاثة أيام.

- لعلك تشتاق إلى الوطن، تشتاق إلى البيت.

- كلا، لا أشتاق.

- لماذا؟

- هنــاك الوضع سـيئ. لا توجد مثل هــذه العربات والأرصفة، والمتاجر، لا يوجد مثل متجركم هذا. لا أشتاق بالمرة. لو كان بالإمكان لبقيت هنا إلى الأبد.

يهز رأسه بعتاب. ينظر إليّ بتسامح وحزن بعض الشيء.

- أيهــا الولد، أيهــا الولد الصغير. ماذا تفهم فــي الحياة؟ هنا من المســتحيل العيش. الناس مثل الوحوش. مستعدون لقتل بعضهم

بعضا من أجل دولار. أعمل أربع عشـرة سـاعة فـي اليوم، أجمع النقود. سـأجمع قليلا وأسـافر إلى الوطن، إلى فلسطين. وهناك يطلقون النار. وعندكم لا يطلقون النار، أليس كذلك؟

- كلا.

ندفع الحسـاب، نودع بعضنا بعضا وننصرف. أخرج بعربتي من المتجر. أسـتدير بها، أنظر إلى الفلسـطيني المسن من خلال زجاج واجهة العرض. سعيد ! عنده وطن.

الحرية

سان فرانسيسكو. مدينة أحلامي، مكان مؤهل للجحيم الرأسمالي. مدينة البؤساء والغرباء.

أقف على الرصيف. يومي الأخير في أمريكا.

غدا سيوصلونني إلى المطار، سيركبونني في الطائرة التي ستحضرني في الموعد إلى روسيا. هناك، في روسيا البعيدة، سيضعونني بإحكام على الأريكة وسيحكمون عليّ بالسجن مدى الحياة بين أربعة جدران. الروس الطيبون سوف يعطونني الأكل، وسوف يشربون معي شرابا. سأشبع هناك وربما سأشعر بالدفء. سوف يكون كل شيء هناك ماعدا الحرية. سيمنعونني من رؤية الشمس ومن التنزه في المدينة ومن الجلوس في المقهى.

سيشرحون لي برفق أن كل هذا الإسراف، للمواطنين الطبيعيين الأصحاء. سيعطونني أيضا قليلا من الأكل والشراب ولمرة تالية سيذكرونني بجحودي الأسود. سيقولون إنني أريد الكثير جدا، وأنه من الضروري أن أصبر قليلا، قليلا جدا، خمسين عاما. سأوافق على كل شيء وأومئ برأسي منطويا على نفسي. سأفعل كل ما يأمرونني به بإذعان والصبر على العار والإهانة في صمت. سأتقبل نقصي كشرّ حتمي وسأبدأ في الموت ببطء. وعندما أسأم من مثل هذه الحياة الوغدة وأطلب قليلا من السم، سيرفضون بالطبع. الموت السريع ممنوع في تلك البلاد البعيدة والإنسانية. كل الذي سيسمحون لي به - التسّمم

ببطء من الشــراب، والأمل في الإصابة بقرحة المعدة أو انسداد الأوعية التاجية في القلب.

أقــف علــى الرصيف. إذا ضغطــت حتى النهايــة على مقبض التحكــم للعربة الكهربائية إلى الأمام، فســيأخذني المحرك القوي إلى المجهول. ســتطير الطائرة من دوني. بعد يومين ستنتهي شحنة العربــة. لن أبقى حيا مــن دون نقود ووثائق في هذه البلاد الجائرة والرائعة. أقصى ما أستطيع أن أعتمد عليه، هو يوم آخر من الحرية، ثم الموت.

* * *

هذه أمريكا. هنا كل شيء يباع وكل شيء يشترى.

بلاد رهيبة وجائرة. ومن العبث الاعتماد على الشفقة.

لكنني أكلت الشفقة حتى الشبع عندما كنت في روسيا. سترضيني تجارة عادية.

هذه أمريكا.

- ماذا يُباع؟

- يوم الحرية. الحرية الحقيقية. الشمس، الهواء.

يقبّل بعضهــم بعضا أزواجا أزواجا على الــدكات. الهبي يعزف على الجيتار. مرة أخرى أرى الصبية الصغيرة كيف تطعم السنجاب مــن راحة يدها. للمرة الأولى والوحيدة في حياتي أرى المدينة ليلا، وأرى أضواء مصابيح آلاف السيارات.

للمــرة الأخيرة أتمتــع بالنظر إلى اليافطــات النيونية، أنا أحلم بالسعادة المستحيلة، الولادة في هذه البلاد العجيبة.

بضاعة حقيقية، جيدة. صنعت في أمريكا.

- كم تساوي؟

- أقل بقليل جدا، من الحياة.

- أشتريها. لا حاجة إلى فكة النقود .

* * *

وبعد ذلك كنت أشرب الشراب في روسيا من الصباح إلى المساء طوال الشهر، كنت أبكي في الليالي وأنا في حالة هذيان بسبب الثمالة، كنت أحاول تحسس لوحة تحكم العربة غير الموجودة، الأسطورية. وكنت أتأسف كل يوم لأنني في اللحظة الحاسمة اتخذت القرار الخاطئ.

الأسود

كما هو معتاد في الحياة، تتبدل المرحلة البيضاء بالسوداء، النجاح يتناوب مع خيبة الأمل. كل شيء يتغير، كل شيء يجب أن يتغير.

هكذا يجب أن يكون الوضع، هكذا من المفترض. أنا أعرف هذا، ولا أعترض على ذلك، لا يبقى لي إلا أن آمل بأعجوبة. أتمنى بإخلاص، وأرغب بلهفة، أن تظل مرحلتي السوداء طويلا، ولا تتغير إلى بيضاء.

أنا لا أحب اللون الأبيض. الأبيض هو لون العجز والقضاء المحتوم، لون سقف المستشفى والشراشف البيضاء. رعاية ووصاية مضمونة، هدوء، سكون، لا شيء.

اللاشيء في حياة المستشفى يدوم إلى الأبد.

الأسود هو لون النضال والأمل. لون السماء ليلا، خلفية أكيدة وواضحة للأحلام، وقفات زمنية بين فترات لا نهائية، بيضاء طويلة نهارية لأمراض البدن. لون الأحلام والخرافة، لون العالم الداخلي للجفون المغلقة. لون الحرية، اللون، الذي اخترته لعربتي الكهربائية.

وعندما أسير مساري الطبيعي خلال صفوف المانيكانات الحسنة النية والعديمة الشخصية والمرتدية للأردية البيضاء أصل إلى نهايتي، إلى ليلتي الشخصية الأبدية، ستبقى بعدي الحروف فقط.

حروفي، حروفي السوداء على خلفية بيضاء.

أنا آمل ذلك.

المترجم في سطور

د. ناصر محمد الكندري

● من مواليد الكويت ١٩٥٧.

المؤهلات العلمية:

● حصل على شهادة البكالوريوس والماجستير في الهندسة المعمارية من جامعة كييف للهندسة الإنشائية - أوكرانيا (١٩٧٥ - ١٩٨٢).

● حصل على شهادة الدكتوراه في الهندسة المعمارية من الجامعة نفسها (١٩٨٤-١٩٨٨).

أعماله:

● يعمل مستشارا عقاريا في بيت التمويل الكويتي.

● ترجم مقالات علمية عدة نشرت في مجلتي «التقدم العلمي» و«العربي»، كما راجع لسلسلة «إبداعات عالمية» العدد (٣٦١) وهو مسرحية «الصورة».

المراجع في سطور

د. وليد أحمد البصيري

● من مواليد الكويت ١٩٥٧م.

مؤهلاته العلمية:

● حصل على شهادة البكالوريوس في الطب والجراحة البشرية ١٩٨١ من أوكرانيا - الاتحاد السوفييتي.

● حصل على شهادة الماجستير في الطب الطبيعي والتأهيل الصحي ١٩٨٣ من أوكرانيا - الاتحاد السوفييتي.

● حصل أيضا على الدكتوراه في الطب - تخصص الطب الطبيعي والتأهيل الصحي وعلم المنتجعات الصحية عام ١٩٨٧ من الجامعة نفسها.

أعماله:

● يعمل طبيبا استشاريا في الطب الطبيعي والتأهيل الصحي - وزارة الصحة، ومدير المركز الطبي التأهيلي في دور الرعاية الاجتماعية - وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل.

● له العديد من المقالات المترجمة في المجلات.

الفهرس

المقدمة 5
التصدير 9
البطل 23
الأحلام 25
العيد 29
الطعام 33
الحاضنات 46
الأولاد 50
أمريكا 59
المأفون 60
ساشا 66
نيويورك 80
الكستليتة 83
الألماني 89
الموسيقى 91
الرسالة 92
الفطائر الصغيرة 102
العراك 104
الإسبانية 112
المريض النفسي 120
الميدان 130
دار كبار السن 133
اللغة 141
العكازة 143
الآثمة 149
الضابط 152
المعيلة 156
بطاقة مرور 163
الأحمق 166
المادة اللدنة 167
أبـــداً 169
الصديق 171
I GO 173
الوطن 176
الحرية 179
الأسود 182

إبداعات عالمية
366

بالأبيض على الأسود

تقدم سلسلة «إبداعات عالمية» في هذا العدد لقارئها الكريم رواية من الأدب الروسي المعاصر، تحت عنوان «بالأبيض على الأسود» للكاتب روبين دايڤيد غونساليس غاليغو.

والرواية هي سيرة ذاتية عن المؤلف الذي أصيب منذ ولادته بشلل الأطفال الدماغي، وتدهورت حاله الصحية عندما كان عمره سنة ونصف السنة، وأخبروا أمه بوفاته، ومنذ ذلك الحين عاش حياته متنقلا بين مؤسسات مختلفة للمعاقين، من دور للأطفال وكبار السن.

أما القصص التي تتضمنها الرواية فهي قصص مستقاة من حياته، مرتبة زمنيا، وكل قصة في حد ذاتها تعبر عن تجربة كاملة.

وقد يشعر القارئ لهذه الرواية بنوع من التنفيس، بغض النظر عن العتمة وسواد العالم المحيط ببطل الرواية، وذلك بسبب اللحظات المضيئة في حياته، فهو يعطي درسا في كيفية الاستمتاع بما لديك في هذه اللحظة، وعدم التذمر من الحياة ومن شيء لا تملكه أصلا.

إن الرواية تدعو إلى الحياة والأمل والتفاؤل على الرغم من كثرة صفحات الحزن والرعب فيها، والمآسي التي تزخر بها الحياة والتي تدل على قسوتها.

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٣٤
ردمك: ١-٢١١-٠-٩٩٩٠٦-٩٧٨

hamza mizou